

البَابُ السَّادِسُ

كِتَابُ الْبِرِّ سَائِلِ الْعَمَلِ

١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع ، وأعرف الوزراء لعهدده بسياسة الملك ، وبناية المجد ، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثاني" لتوسعه في العلوم العقلية والتقليدية ، وإطلاعه على ما دون الأقدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثاني في الكتابة ، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد : فتحدث عنه الشعالبي^(١) وياقوت^(٢) وابن خلكان^(٣) بشيء من التفصيل ، وعرض له التوحيدى في غير موضع ، ولكن أجمل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل المتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم) بعد أن لازمه ليل نهار في صحبة دامت سبع سنين .

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره ، وأحفظهم للغة والغريب ، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار ، وأنقذهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والآلهيات .

ولا يحسب القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدا ، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والتحصيل وتدير الأمور ، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث ، وإنهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) بنية الدهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للجاحظ على ابن بكر الحيايط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه ، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره ، وطلبه فلم يجده ، فرأى ابن العميد أن يقدم إليه نعل نفسه ، فعَدَّ ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد ، فلما بلغته هذه المؤاخذة قال : كيف ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبائع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه . ولقد كنت وغيرى تهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... أفما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة ^(١) ؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية ، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء ، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء ، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف .

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالميكال ، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر : فقد حدثنا صاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال : "وسمعت — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمراراً ومع أى القوافي يحصل أجمل اطراد" ^(٢) .

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق ، وسمو بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ ، فالرجل يرى أن جودة الشعر لتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(٢) أنظر رسالة صاحب عن المتنبي ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني ولأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنني وقفت عنده طويلا : فقد ذكر يوما أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في نقد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوما باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرتضى الشعر فأعجب من إirاده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاخترتها لانفرادها في بابها .^(١)
فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان "قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحسب فيها ولا يتلثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهة نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه"^(٢) .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب "فاذا حضر المعارك وباشر الحروب فانما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ، ولا يدخل في غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب" وكان الى هذه الخلال حسن التدبير الى حد الإعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم عليهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعبا للفتن والدسائس وميدانا للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور وبضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترنى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا إليه جياذ المدائح، وللتنبى فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشرها إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالرى وأمتدحه بقصيدته التي أوطأ^(١) :

برح أشتياق وادكار	ولهب أنفاس حرار
ومدامع عبراتها	ترفض عن نوم مطار
لله قلبي ما يحزن	من الهموم وما يوارى
لقد آنقضى سكر الشبا	ب وما انقضى وصب الخمار
وكبرت عن وصل الصفا	ر وما سلوت عن الصغار
سقياً لتغليسى إلى	باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزار
حجى إلى حجر الصرا	ة وفي حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطأ	نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلد	سوى معاقرة العقار
أحيا بالخان قر	ت بهن ألحان القهارى
وإذا استهل ابن العميد	تضاءلت ديم القطار
خرق صفت أخلاقه	صفو السبك من النضار
فكأنما زفت موا	هبه بأمواج البحار

وكان نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
وكانت ما تفرق راحتاه في نثار
كلف بحفظ السر تحسب صدره ليل السرار
إن الكبار من الأمور تنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضل اتبعت هو اجس النفس السواري

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابته فتوصل إلى أن يدخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار إليه بيده وقال :

”أيها الرئيس ! انى لزمك لزوم الظل ، وذلت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك ، والله ما بى من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحونى فأغششتهم ، وصدّقونى فاتهمتهم ، فباى وجه أنقاهم ، وباى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ، ومن ثربعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، ويأس مستقم . فان كان للنجاح علامة فأين هى وما هى ؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك ، وان الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم بمنابك أعظمهم شأنًا ، وأنورهم شعاعًا ، وأمدهم باعًا ، وأشرفهم بقاءً “ .

فخار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك فى الاستزادة ، وعن الإطالة منى فى المَعذرة ، واذا تواهبتنا ما دفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنى إذا مطل لثيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولى نعمة فأحتملك ، ولا ضيعتى فأغضى عليك ؛ وان بعض ما أقررتة فى مسامعى ينغص مرة الحلم ، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك
تقريظى

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول،
ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأهبتك، وقلت
لا يخاطبني أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة،
وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتنى بلسان الحال، ولم تدعنى
بلسان المقال !

فتار ابن العميد مغضباً وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس،
وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى
على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعاً مهيناً له، ومشتريه مما كسا فيه !
فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه أتمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار
ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد
الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه
وهو ابن خلكان عاد فحدثنا أنه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسويين الى غير
ابن نباته، وأنه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه هذه القصيدة وأنه وجدها فى (مثالب
الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة
لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين)
ونخشى أن يكون ضاع أبد الأبدى، مع أنه كان موجوداً بالآستانه منذ ثلاثين عاماً،
ولو أتيج لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستطعنا تخطيطه ابن خلكان، فالتنا نجزم جزماً قاطعاً
بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفاً من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علمية ، فانا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو ألقيت جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأقول نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون ، فان واضح المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتثور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثلثه وتجريحه حيناً من الزمان .

٧ - وكان لابن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهتم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من نقاته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه أشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث من عقد مجلس مسرة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شراباً فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدرس ابن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

” قد اغتنمت الليلة أطل الله بقاء سيدى ومولاي رقدة من عين الدهر ، واتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام “ .

فاستطير ابن العميد فرحاً بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، ووثقت بحريه فى طريق ، ونيايته منابى . ووقع له بألقى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخلاء فكان يحمل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقال ليسلموا له الرئاسة . ” حتى لا يأنف أحد من تقبيل الأرض بين يديه والمشي قدامه إذا ركب ، مما لا يؤثره

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) .

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان ابوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا في تغير ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفرائه واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب العاريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير في موكبه أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمساييرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح الى الصيد . قال ابن مسكويه : « فاستشاط من ذلك وساء أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتم عليه حيلة . فدعا أكبر حجاجه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مساييرته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيفض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخلّهم من الخلع والالطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا ، ولم يحب أن يخرق هبة نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الانكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك الى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذهان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها^(١) منه “ .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكارا كل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣٠

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١) وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك ، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على ألسنة المتزلفين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياح يقولون بإمامته في الشرح كما كان لأبي فراس أشياح يقولون بإمامته في الشعر . وكلنا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفاضل الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتعايير وتقاليده لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هي إعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبارة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفته ، كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه ، عبقرى لا يعبت برجع الحديث المعاد ، وإنما يحث بابداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن ثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في ثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابي مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن ملكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحول مشا كل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى عضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

”كناي وأنا مترجح بين طمع فيك ، وياس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو “ .

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويوقف المتردد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعصيان فيقول :

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليلى ، وغذاء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكفن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المترية ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! “.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلعه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ” تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسديك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وقتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريع ، أو موت مريح ^(١) ؟ “ .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأفلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موفقة لذلك العرف الذى سنه كتاب الدولة الأموية وأقره كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد متشورة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة في البيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول في قلبه الى عشق ، لأنه في عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصديق . وهو في عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارفة فيرمى بإخاء من يعاتب في بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفاء الزمان في ابتدائك ، وتصفحي حالات الدهر في اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يريج زكاؤه ، ولم يجر ماؤه ، ولم تفتح أزهاره ولم تجن ثماره ، وليت شعري كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتلاف ، وحمطنا من اختلاف ، ونحن في طرفي ضدين ، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد والتجاد ، وأبعد مما بين البياض والسواد ، وأيسر ما بيننا من التفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، أكثر مما بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار“ .^(١)

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهم القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : هيات ! فنحن نعرف ما تشير اليه أمثال هذه الثورات : فان المرء لا يفضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه في الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول :

”ولو بقيت من الصبر بقية لسلوت ، ولو وجدت في أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجلده لأمسكت ، فقدما لبست الصديق على علاته ، وصفحت له عن هناته ، ولكنى مغلوب على العزاء

ماخوذ على عاداتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالاً جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حامى بفعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لامتلاّت صدورهم ... انخ^(١)“ .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبرى هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه في جواب خطاب :

”وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقتى من مخالّتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأتى من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء، ونزع من عنتى ربقة الذل في إخالّك، بيدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميرى من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب في صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلام فطورى بجمل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسى فعوض عن النزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنى غيابات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستنكراً، فوليت منها فراراً وملكت رعباً . فأذهب فقد أقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذم عهدك^(٢) !“ .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد ليرى ابن العميد آقبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفاً كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشياً من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقي حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التعالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القذاة، ولم تلفظني من فيك، وتمجنني من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تُجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتذكره حتى تثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تُذكر، فقد صرت عندك ممن يحا النسيان صورته من صدرك، وأسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعي فيك وقد توليت، وأسألتني لك وقد تأيبت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، فخرّبه في المعاودة فإنه في العود أحمد“^(١) .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فلوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبري كتاب نصيح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبري

هذا هو صديقه الذى حدثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإثثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تتحز فىه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تميزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاء ، فان اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك ^(١) .

وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ود ذلك الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

” لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشمل أنسى ، وقد عدت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ^(٢) ؟ “ .

٧ — وما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فن برع فيه كتاب القرن الرابع وصبروه سنة يجرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

وردا سائعا لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفى أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُبدى مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

” قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرتك على تنائيه ، لأن الشوق يملك ، والذكر يخيلك ، فتحن في الظاهر على أفتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى التسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح ^(١) “ .

وهو معنى جيد أنهى به البيغا في إحدى رسائله الاخوانية ^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق في وصف كتبهم اليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

” وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتمهدك ، فأرتحت لكل ما أوليت ، وآبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحلل وحلى ، وشذور الفرائد ، فى نحور الخرائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أَرْضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم ^(٣) “

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازة للكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فأملت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري“^(١).

هذا ولابن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهاني رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارغ وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان، وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص ب. برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفني في القرن الرابع، توفي بسرقسطة سنة ٤١٨ هـ كما في الذخيرة وإرشاد الأريب^(١)، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التي لا تتحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً" وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه "واسطة السلك، وقطب رحي الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعا وإحساناً" وذكر صاحب المطمع أنه "غذى بالأدب، وعلا إلى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونفر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد	حد حسامي قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	من نظم الألفاظ نظم العقيد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدي الأسد ^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في آنفس من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين منحاه في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجعوا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن
 بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله ،
 وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر
 وابن برد الأصغر . فإنا نجد صاحب المطمع ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر ،
 وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر (٣) - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
 كبرت من فرط الجمال وقلت ما هذا بشر
 فأجابني لا تتكبرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمع الى ابن برد الأكبر . ونسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر .

٤ - تولى ابن برد رئاسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكني ، وكتب
 كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليهِ رئاسة ديوان الإنشاء أثر قوٍ في حرصه على أدوات
 الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم
 كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا
 لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبي عامر رقعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذي
 غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبية ،
 وخليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل النماء ، وكم غصص في شهى الغذاء ، ومن شرق في نير
 الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلت معرفته ،
 وأنضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز
 الرق فيحسن اختياره ، وعززه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فليخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بيدت الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل^(١) .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوما منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من همهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب ، وسلك الكلام : به ينظم منشوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكاتبه ، إلى ما أقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً ثن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعده أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأفين لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ - وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصور ما كان من النزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدة رسائل إلى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

”ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لعبيدها تقدمهم في الثقة، وتقربهم بالموودة، وتعتمد لهم لحادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسموا ذكرهم، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم... وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من آنتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليتهم، فإن نعمتم حالا فزقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبنا، وأشد غموها، فسيحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا تنق إلا بكم، فإن يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم فمن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم: فتعود السيوف في أغمارها، والنبال في كائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نعضو ونصفح“^(١).

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقته، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمين عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقته لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستنفذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم وتوهم بهم بالتصرف في الخدمة، إلى أن يقول:

”وأقسمت على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنتي لكم ذلك ؟
ولأنما أنتم مدبرون مسوسون، وأتباع مربوبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة
محبوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه
فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه في غنى عن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه،
ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله .
ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم
لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقيم الأود، ويعدل الميل... وأعلموا أن السداد
والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته،
فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا يتام عن مصالحكم
ولا يني في منافعكم، ولا يسمى إلا فيما يرثي ألفتكم، ويجمع كلمتكم“ .^(١)

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالاته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر
مأيسر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة
على السنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية
فلم يزد على أن قال :

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان،
ونماؤها وتقصانها منتظان : إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الجباية، وفيهما قوام الملك
وعز السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقا تل العدو. وينصر الدين، وتحى الحرم“ .^(٢)

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق اليه في مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله
هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتقدمين : فتحدث عنه ابن بسام
والمقرئ والقلقشندي وابن خلدون . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما^(٣)

فيه من الدلالة على صولة العامرين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه وتقافته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم أن ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! أن من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تتراح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهده ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقد لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعبنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعززة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى إذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطور ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهذ ركن الخلافة والأمانة ، بما أحتجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدرة ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرابه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية، وكان من كبار الكتاب في دولة العامين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً، والتلف إلى الباطل أحياناً. وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع: لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان. وكان ابن برد كاتباً ووزيراً، والكاتب والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغي عند من تغويهم منافع العيش، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا الغرور.

٩ — وهذا الجانب النفعي هو الذي عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجوا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذي يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين في صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسي كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب في تلك الأيام، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يتحدثهم النثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد. وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين: فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم، وإنما كان في الأغلب صدى للجلجلة الاستبداد والطغيان. وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش في صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين.

٤ - أبو المغيرة بن حزم

١ - في الأصل الفرنسى فصل عن أبي عامر بن شهيد . وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذي أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمه بسملة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طبق صيته الشهير والغرب ، فلنسارع إذن بتقرير ما هذان اليه البحث من أن " ابن حزم " يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب ، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب ، وهما من بيت واحد وابنا عم ، ويمكن الحكم بأن أولهما أفتح وأعلم ، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يغنى في تحديد الزمن الذي عاشه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبخر القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في نحوله أنه اعتبط شابا " ولو طال به مداه ، لم يذكر معه سواه " كما قال ابن بسام ، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبي محمد بن حزم طغت عليه فأغرقت في لبحج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا النحول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول :

كفاني بذكرى الناس لى وماثرى ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نصح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء في النصح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من « بنى حزم » وهى أسرة عربية أندلسية .
(٢) قال المقرئ في الحديث عن المستظهر : " وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك في بطالته ، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالته ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المتوفى في حاله " نصح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للجهول : مات .

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتى ولالك فيهم من صديق يكائر
وقولى مسموع له ومصندق وقولك منبت مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعقتنى لتحتمل ما جاءنى منك صابر
وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقتله المقادر يذكرنى حاميم والريح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلغ ظاهر
ألم لتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وأمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والفسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنى سائر وإن أنا عن قوم فإنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصرفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجدده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ،
تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن
السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم
بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبليت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب^(١) .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأذواق، بل يتحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان .

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطياب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأتس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولننظر كيف يقول :

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، وليست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة :

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات في الدنيا شهود^(١)"

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس إليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشربة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن في الاحتماء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول :

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجحيلة للناس، لا تُلدغن من حجر مرتين، وإذا كرم المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والعافل من حمله كل بلد، وتفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكلف، إلى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور^(١) له".

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تنطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظالمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لئيمة تبيع كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا يجنى الشوك إلا حيث يفرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فقرأ يقول فى بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهدأ لمتن ، ولا نازلة كنايةك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لى الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتنى الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النجور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه فى رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نقست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخله إلا كقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربته قومه

فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا أو أسمعنا، وطرنا أو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجوا لها ترحا“^(١).

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنجر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ بجذب الرقعة من يده وبالغ في إجزال صفده. وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ وكم قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”فحين شمع بالظفر أبقى، واهتر لنيل الأمل عطفي، والدهر يضحك سرا، ويتأبط سرا، وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألوانه، وفسا ظريانه، ونادى ليغم من قعد، ويتنبه من رقد، إنما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت في عمياء من ظفري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كإيهام القطا، فباله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح ما أخذ شفرته“.

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء . وله في الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة ” قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا ، وإلى الكريم أمانا “ وربما كان أقبح أهاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم ، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه ” معنى كصدا الأسنان ، ولفظ كنفحات الأكفان ، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس ، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس ، ورطانة تمجها الأسماح ، وتخبوها الطباع ، فوقفت متبلدا ، وعدت على نفسي وقريحتي مترددا ، فقلنا أيها الانسان ، لست بالنبي سليمان ، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل ، وسرار النمل ؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت ؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت ؟ ألم تجل في ميدانه فسبقت ؟ ألم تسر في ظلماته فأشرقت ؟ هل أحسست بنكول جنان ، أو قصور لسان ، فيما نظمت كالعقود ، على ترائب الفتاة الرود ، ونثرت كالنجوم ، في صفحة الليل البهيم ، فقلت : بلى ! قالتا : فأعرض عن رطانة الزط ، وصغير البط ، ولا تعج على طلل بائد ، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد ! فقلت : لقد أسرفتما طاعنين ، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان ، ولعالم نوع الإحسان . إلا أنه ربما كذب العنوان . فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه ! كتاب بنى على الظلم العبرى ، والبهتان الجلى ، ومكابرة العيان ، ومدافعة البرهان ، قد طمس الله أنواره ، وأظهر عوارده ، بخاء كالغلاة القوراء : لا ماء ولا شجر ، والليله الظلماء : لا نجم ولا قمر ^(١) .

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه ، فإن الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء : لأن ثائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد ، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما نحمد من جذوات النفوس والعقول . ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لأبن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره ، فانه يهجو أبن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجأؤه لغيره عن المزاح الثقيل ، كقوله فى التهكم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى فتح الطيب ج ١ ص ١٣ هـ فقرات من تهاجى هذين الكتاتين ، فليرجع اليهما القارئ إن شاء .

ببعض المتطيين : ” وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث انتهى من تطبه ، وكيف ظروفه وخزائنه ، ولمواقته ومعاجنه ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على الماء ، ويديه من الأدواء ، وأهد إلى ما ينقته من المقال ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام ، بشريعة الاسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الخصاص^(١) “ .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمدح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدي بالنثر كل ما يؤدي بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في نثر أبي المغيرة نفحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت بسرعة الى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، والى القارئ رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

” فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر أست في يياه ، الى عواء ذئابه ، لأمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخارب المنتهب ، والشعار عند الناثب ألقاها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول أبي الطيب :

فان أسلم فما أبقي ، ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي الى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني الى محط الرحال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذي لا تحصى فرائده ، والغيث الذي لا يجذب رائده ، حتى أداني الى الحضرة العليا ، والمحلة الشماء ، فكبرت لي بكارا لما صرت اليه ، وهلت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أني في الحرم الذي لا يضار جنبه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصب ، وتمكنت من الرشاء والقلب^(١) “ .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل ، والقلب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمداني رسالة شائعة في إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاعرين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد ضالة ودنا، ويرقع خلق عهدنا، ويطلب ما أفانته جريرتك الينا، وذهبت به جنائتك علينا، أيام غصنك ناضر، وبدرك زاهر، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع، ونفورة تقيم مناد الضلوع، فإن رمنا شكوى ينفث بها مصدرونا، ويستريح اليها مهجورنا، لقينا دونك أمنع سد، وأقبح صد، وأقبح زند، وأبرج رد، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وآنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاكك كسوفاً، وقلبت ديباجتك صوفاً، وأعادت نهارك ليلاً، وناحت عليك تلهفاً وويلاً ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك، فصار عرسك مآتماً، وعاد وصلك محزماً :

وبت مداماً تسر الزيفاً فأصبحت تجرع خلا ثقيفاً

وصرت مجازاً جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفاً

أقبلت تتسلل الينا لوإذا، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية، وأولاك طمعاً نسيانك تلك الجناية، أيام ترشقنا بسمام لحاظك رشقا، وتقتلنا بسيوف ألقاظك عشقا، وتميس غصنا، فتثير حرنا، وتطلع شمساً، وتغيب نقساً، فالآن نلقاك بدمع قد جف، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد، وصبر قد غار وأنجد، وننظر منك الى روض قد صوح، وسار قد أصبح، وأعجم قد أفصح، ومبهم قد صرح ... الخ“^(١) .

١١ — ثرأبي المغيرة في حملته متين رصين، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل، ودماثة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض، نكتفى بالإشارة إليه، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضح ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغيا

١ - البغيا هو عبد الواحد بن نصر المخزومي . وإنما لقب بالبغيا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ في نصيبين وارتحل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ قال الثعالبي : "وأخر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكاكي يورده من ذكر التفائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلاثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متطاول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع" .

٢ - كان البغيا من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه بعين بعض صفاته ، لأن المؤلفين يهتمون في الأغلب بتقيد ما يصل اليهم من أخبار المشاعين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب حامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل اليها من شعر البيضا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ -- وإنا نراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب القافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجداني، فقد كان شعر البيضا يُغنى به وكان من مُتَع السامرين في الشام والعراق، ولننظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه	ونرجسه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظلما محاسن وجهه	فاضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما	سقى عينه من ماء تور يده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي	لقد طال ما آستشفت بهامقل رمد ^(١)

ولننظر كذلك كيف يقول في محبوب فصده مبضع الطبيب :

بأبي الغائب الذي لم يغب عني	فأشكوه اليه هم المغيب
باشرتة كف الطبيب فلونا	ت الأمانى قبلت كف الطبيب
فعلت في ذراعه ظبة المبه	ضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفوني	عصفرتة بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الده	مر لأمسى عطرى وأصبح طبي ^(٢)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإنا لتأمل في شعره فنجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن الورد أطرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وآجل شمس العقار في يد بدر الـ	حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وآتتهز الامـ	كان من قبل عائق الإمكان
في كنؤوس كأنها زهر الخشـ	خاش ضمت شقائق النعمان
وأخذتها عند البزال بألفـ	ظ المشاي ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زفـ	ت بعزف النايات والعيـدان ^(١)

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصبياء ودعوته الى أخذاعها كما تختدع العروس
بالنأى والعود .

٤ - ومما يؤكد أن أطماع البغيا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب
الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنـ	فكن عزيزاً إن شئت أوفهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما العدـ	ة في عتبنا على الزمن ^(٢)

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتني
فلم أرمذ عرفت محل نفسي	بلوغ متى يساوى حمل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجسد فيما	سعت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجز	وان أبلغ فنفسى بلفتي ^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه أيات وسدت مشارعُ
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيضا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ - وخلوص البيضا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإحاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبي اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غالبا فأرخصته والبيع غال ومرتخص
وأنستنى في محبسى بزيارة شفت كمدا من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كسوة طائر فواقا كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذرك القفص
كذا الكرز^(٢) الملاح ينجو بنفسه اذا عاين الأشرار تنصب للقفص
فخوشيت يا قس الطيور فصاحة اذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٣)
وقد أجابه البيضا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيغاء قدما ملقبا فكم لقب بالخور لا العدل مختص
وبعد فما أخشى تقنص جارح وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص^(٤)

٦ - وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الإيجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيضا من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "البيغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة . (٢) الكرز ، بضم الكاف ، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة . (٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاورة طريفة في وصف البغياء فهو مثلاً يعتذر عن إهماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفاً من تذكرك القفص

وللنظر كيف يقول في وصف البغياء :

أنعتها صبيحةً مليحة	ناطقةً باللغة الفصيحة
عدت من الأطيوار واللسان	يوهني بأنها انسان
تُهي إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سمّعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقنت العضيّة	فتتدى بديهةً سفية
زارتك من بلادها البعيدة	وأستوطنت عندك كالعبيدة
ضيف قراه الجوز والأرز	والضيف في أبيتنا يعز
نراه في مقارها الخلوّق	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلتها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك التي قلبي بها مشغوف	كنيت عنها وأسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغياء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها نافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغياء :

تهوى بدوَّاجٍ من الزمرد ^(١) ومقالة كسبج في عسجد
وحسن منقار أشم قان كأنما صيغ من المرجان
صيرها انفرادها في الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لحد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغدا لاتشرب الماء ولا تخشى الصدى
ذات سُعى تحسبه ياقوتا لا ترتضى غير الأرز قوتا
كأنما الحبة في منقارها حباة تطفو على عقارها
إقدامها ببأسها الشديد أسكنها في قفص الحديد ^(٢)

٧ — وهذا الوصف وصف البيغاء الذى أجاد فيه الشاعران أتاحته لنا لغة أبي الفرج

التي أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك المحاسن لغةً وليس سوى الانسان تلقاه ألغا
أتعرفها فيما تقدّم خاليا لعير اذا ما صاح أو حمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوغا ^(٣)

واللغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى

وان كنا لا نرتضى بقية التثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيّد هنا أن شعر أبي الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك

يتصل بمذهبه فى النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتبنى وأبى فراس بيدع أحيانا ويروع حتى لنعمده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالطّبا عاطيتهم فى الروع كأس مُدام

(١) الدراج على وزن رمان وغراب الخاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشئ كهذى خصل الشعر المشعان ، والشعوانة الجملة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ ينيمة . (٤) ١٩١ ج ١ ينيمة .

متهاجرين على الدنور كأنما أنفت رؤوسهمو عن الأجسام^(١)
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :
 اذا آستلكت الجانون أعمدك الحلم وان كفك الإبقاء أتمضك العزم
 ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عتوه — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم
 إذا العرب لم تجز أصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياستها العجم
 أعدّها الى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أباؤك الشم^(٢)
 فان ضاق عنها العذر عندك في الذي جتته فما ضاق التفضل والحلم^(٣)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنحت بها وقرن الشمس لم يغيب
 نغلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب
 وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب
 وجاش عباب واديها بمنهل ومنسكب
 ويا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب
 فبا عجباً لعاصرها وما يفنى به عجي
 وكيف يعيش وهو يخو ض في بحر من اللهب^(٤)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الخين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب
 تبائر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب
 تماشي بفتيان كأن جسومهم لحفتها فوق السروج قلوب^(٥)

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ - نثر أبي الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقيل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماه العقول .

٢ - وأول ما يطاتنا من نثر البغيا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه والآله وإخوانه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر“^(١) .

أو يقول :

”شوق^(١) إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“ .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك يخذ نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتخيّل المثل لمن نأت محلته، والتفكر المصنوع لمن بعدت شقته، لألهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهمت دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح“^(١) .

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحبين :

”إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تُمَضُّ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النسوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى“^(١) .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والود ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البغيا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها لما عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته في التهنية بمولودة : فهي تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنيء ، فيقول :

”ولو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحدة فطته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يحهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بي خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند أتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهن أقرب الى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جل من قائل (زهيب لمن يشاء إنانا وهيب لمن يشاء الذكور) وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أخرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف استحدثن ؛ من طرق الأصهار ، والاتصال بالأخيار ، والملمس من الذكور نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكر الأئني أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعا ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويحدد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، ان شاء الله تعالى .

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع ، فقد عقد له الحصري فصلا في زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأئني على الذكر قول بعض الكتاب :

” الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ؛ والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تُتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ؛ والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون “ .

ويتصل بهذا المعنى ما أقترحه سيف الدولة على البيغان الكاتبة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تزوج أمهاتهم كرها شديدا . وقد آتفق لعمر بن مسعدة أن سألته سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه ! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثانى كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء . أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور ، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستعجن عمله ، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه ، وأنفرد عن أودائه ، وتوارى عن أصفائه . حياءً من لقاءهم ، وكرهاً لتهنتهم أو عزائهم . ثم بين نماذج ما يكتب في مثل هذه الحال . وإلى القارئ نص رسالة البغيا التي اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

”من سلك اليك — أعزك الله ! — سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلكاً من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . وأتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وقر الله صياتها — فى اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروءة يحظره ، لكننت فى مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جدده الله فى صياتها أخرى ، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام“ .^(١)

ولا يفوتنا أن نذكر أن البغيا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض ، ولكن رسالة ابن العميد أكثر وحشية وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

”وهناك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسّع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما يجزّعه من أنف ، وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويجزل به ذنرك ، وقرن بالحاضر من أمتعاضك لفعليها ، المنتظر من آرتماضك لدفعها ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة ، معزى من نقمة ، وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة“ .^(٢)

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا الى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول شرقية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان ، فلتقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكرة البنات إلا لظهور ذلك في أدهم ظهوراً قوياً ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في نثر البيغا رسائله في استهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على قوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الاستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يوصى إلى أن لديه (محبوباً) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروماً من نفحة الصهباء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولقلة الفتوة قطبا ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس في استراحة المسار إلا عليه . وقد طرقتني من إخواني من كان الدهر يماطلني بزيارته ، وينفس^(٢) عليّ بقربه ومشاهدته ، فصادفتني من المشروب معسرا ، وجدت الانبساط في التماسه من غيرك عليّ متعذرا ، وإلى تفضلك تفزع مروءتي في الاسعاف منه بما يلم شمت الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عني بتفضلك حقوق المودة"^(٣) . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"الطف المتن موضعا ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ما عمر أوطان المسرة ، وطرده عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى إلى آجتاء ثمرة اللذة . وبذخائر من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تتجدد بالمكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب عليّ المنة بزيارتي ، فعلت"^(٤) .

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفي في بيانه قول مؤلف كليله ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقا ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألقاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والأقارب غرباء ، ويعد نفسه فريداً" . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣ (٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يدخره المترفون ، حتى استطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينفقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

٥ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البيهقي دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، والدوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب دُرُّ الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميّط ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصرّيفه ، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى“^(٢) .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور النعمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلائها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الافهام ، وشرب الأقلام ... ولا معدل بي عن استماعة خرائك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ دواتي من حمول العطلة ، وتنزه قلبي عن ظلم الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان والخلة ، فعلت إن شاء الله تعالى“^(٣) .

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما بين الكليتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أدواقهم وإن كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، ويستهدى مدادا (جيذا) يتره قلمه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ. واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب. وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بعث نشاط الكاتب. وكذلك تفعل الأقلام الجيدة. وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك^(١).

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف. من ذلك رسائله في التهئة بالزواج^(٢) والتهئة بولاية عمل^(٣) والتهئة بالقدوم من سفر والتهئة بالمواسم والاعياد.

وهذا كله طبعي ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنا المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنا بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه في رأينا من التكلف المجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء. ولننظر كيف يحتال البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبيل، كان معظما في حالي الولاية والعزل. لا يقدح في قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاشها للقاءت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره^(٤)“.

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما أختصك به من كمال الفضل، ومأثور النبيل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة واليدوى والأقلام)

ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية. (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٢٤ و ٢٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاھتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهناً مسروراً، كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً^(١) .

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق البغا : فقد كتب عدّة رسائل في التهئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك، الى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتى الألم والصحة، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى شرف طبيعى بمناسبتك، وجعل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ما خصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك^(٢)“ .

ولكنا نبسم حين نراه يهني صديقاً بالمرض فيقول :

”فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أما طه الله وصرفه، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظاً له من سنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام، وتبنيه العظات، غير الصفوة من عبادہ، الخيرة من أوليائه، فهناه الله الفوز بأجر ما يعانیه، وحمل عنه بالطافه ثقل ما هو فيه^(٣)“ .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للبغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع واحد كقوله فى التعزية :

”اتصل بى خبر المصيبة : بفقد الحسرة، وسكب العبرة، وأضرم الحرقه، وضاعف اللوعة^(٤)“

فراه بعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

” اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقذح اللوعة ، وامترى الدمعة“^(١) .

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الاقتنان في تلوينها أحيانا .
على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قذح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تمزيةً لصديق :

” أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من قن المصائب بصيرته“^(٢) .

وقوله :

” وحرس يقينك من آعراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من قن المحن رعايتك“^(٣) .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمنزل الجديد، وإن كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ - لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشع بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بحجاسن شعره“

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة^(٤) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب البيمة من رسائله ص ١٨٢ - ١٩٢ ج ١

«الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق
المجد اذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن نقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وضمم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا آتزع الله الهدى عز بأسه ولا آتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورغى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البغيا في رسائله لا يقاس الى
فضله وبراعته في نثره المرسل الذي ديج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظَ له منها شاهد يعز
على من رآه من أئدى الكتاب قلما وأسماءهم بيانا^(١) .

(١) تجد هذا الشاهد في باب « الأخبار والأفاصيل » بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئاً كثيراً^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شاباً ذكياً أعد نفسه لمنازل العظمة والخبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوماً بمقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٣) .

٢ - وأول ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقى به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بقية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بقية الوعاة أنه كان في الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهما وتقول له تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول للفراس كل ليلة : اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهما لثلاث نساء .

(٣) ص ٣٦ ج ٣ بقيمة الدرهم .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاد بهارى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكمه فى أمواله ، وكان لقبه الصاحب فى حياة أبيه أنساباً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقر الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة ^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهراً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشهره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدث وقعد للإملاء ، وأزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين ^(٢) . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعائة رجل ^(٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الإطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً ولكن كرمه كان نفاً ينصب لشرائط الشعراء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(٢) ص ٣٥ ج ٢ من بقيمة الدهر .

(٣) بغية الوعاة ١٩٦

(١) ص ١٩٦

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم ويدعى العقل ، وهما في دعواهما كاذبان .

وكان صاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا ، أما كان لك بالجماعة أسوة ! .^(٢)

وورد إلى صاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل صاحب فلم يفتن ، ورآه صاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس ! .^(٣)

وكان صاحب يحب الفخر وآنحال الفضائل التي ربما قصر عنها ، كذلك يقول يا قوت ، ويذكر في تأييد ذلك أن صاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ صاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه ! فجل أبو السائب واعتذر إليه . والقصة وقعت لغير صاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه .^(٤)

وسمع صاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراضني إلا أن أملك العراق وأنصذر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل صاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ باقوت . (٢) ٣٠٠ ج ٢ باقوت . (٣) ٣١٥ ج ٢ باقوت .

(٤) ٣٣٨ ٣٣٩ ج ٢ باقوت . (٥) ٣٣٧ ج ٢ باقوت .

يراها القارئ مبسوثة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدي ، والتوحيدي غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام مونتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدي عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذي وضعه للخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقيح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد ، ولكن النقص من يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكراً ، والكبرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد^(١) .

هـ — وما اختلقه التوحيدي على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدًا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .

واستطاع التوحيدي وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا آذاناً تستطيب ما يقال فيه من الائم والبهتان . الأمر الثاني تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففي ما كتبه التوحيدي شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدي في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوي فكان اذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً يخفق يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذي نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني حتى

فارقني لي، وزايلني عقلي، وانشرحت مفاصلي، وتخاذلت عرى قلبي، وزهل ذهني، وحيل
بيني وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عُجا وجهلا .
ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمه ^(١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن يخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه .
وبالصبيان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلقى ،
فإن الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على
نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدث بمواهبهم والإشادة بما
يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الحنان . ولكن العجيب حقا
هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المزدول الذى يقع فيه المفلسون من
الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت فى إعجاز القرآن ، فراجع اليهودى فيه
طويلا حتى آحتد وكاد يتقد، فأحتال اليهودى فى مخالته وقال :

أيها الصاحب ! لم نتقد وتستشيط وتلهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية
ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فإن كان النظم والتأليف بديعين وكان البلاء فيما تدعى
عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك
وفكرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثرا هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل
حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من
مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فثروحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا
حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حفظا وأفرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا ينحل ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حيله وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شبيها بالقرآن^(١) .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى ، وليس يضيرها أن تكون مختلفة . فقد تكون صور الواقع أفتح من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه ينخدع ، وقد ينخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبت لهم من الحقد والضعينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنْدية الحيين . وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم ، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المدح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ - وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصبهان لأبن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لي بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح ! “^(٢)

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتياب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال في كلمة : لومات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شيء في الاسلام ، وانما أراد الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شيء ثقيل ، هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف في تقرير فضله ، فبينما التوحيدى يلح في ثلبه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليه ، يقوم الثعالبي من جانب آخر فيقول فيه :

” ليست تحضرني عبارة أرضاها للأفصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلال شأنه في الجود والكرم ، وتفرد به بفايات المحاسن ، وجمعه أشنات المفانر ، لأن همة قولى لنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعديه ، ولكنى أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق ، وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمة في مجد يشيده ، وإنعام يحجده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارده في البلاغة ، واسطة عقد الدهر في السباحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين^(١). الخ.

وهنا مضى الثعالبى يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبى الحسن السلامى، وأبى بكر الخوارزمى، وأبى طالب المامونى، وأبى الحسن البديهى، وأبى سعيد الرستمى، وأبى القاسم الزعفرانى، وأبى العباس الضبى^(٢). الخ. الخ.

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم فى كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا فى عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ول هؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم السمائل، وسيئ الطباع. والانسان فى جملة مجموعة مختلفة من الحسن والتبع، والتسامى والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذى يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرى له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبى العباس الضبى فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان فى الرقعة:

”فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعسل“ فأنبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعنى^(٣) «أفعل».

وكتب بعض العمال رقعة اليه في ألتماس شغل ، وفي الرقعة : ” إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله “ فوق تحتها : ” من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي “ .

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى صاحب في ظلامه لهم مترجمة بالضرايين فوق تحتها : ” في حديد بارد “ .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : ” سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعينها إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت وأستبعدت ما حكاها من تطيب صاحب ، ونسبته في نفسى الى التزيد والتكثُر الى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحاة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدلل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه “ .

والمهم في هذا هو آرتياب الثعالبي فيما نسب الى صاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثُر . ففي هذا اشارة الى أن صاحب كان مبتلى بحاشيته يتقنون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة صاحب في التطيب لم تكتب الا معارضة للحوارزمي في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن صاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الحوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوبة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغسة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة صاحب الى صديق شكاه اليه علة أملت به :

”قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه، فدلتني جملة على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم يتق فتفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطغى ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص في آخر الحيات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحيات التي وجدها، والبلدة التي وردھا، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طول هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“^(١).

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذه وقد ظهر عليه الجدرى :

”هذه العلة وان كانت موجعة، وفي رأى العين فظيعة شنة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قرح نهته الطبيعة، ودم أنارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كائنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ“^(٢).

وللخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الحرب، نقتبس منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ بنمة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي .

”... الحرب حكمة مادتها يوسه وحرارة ووقود وآلتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعامٌ وشرابٌ، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمذه القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تريد فيه اليوسه والحرارة. ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطاً وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبتوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داوئتما ظاهرا فن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة. فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسّمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية،... وهذه علة تكسب صاحبها خراية وحياة، وثورته نجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون،... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هتاتهما، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى رجع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان. قال الشاعر :

(١)

أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والحرب

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أُرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن تناول الكتاب. والصلة بين الصاحب والحوارزمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وإن كانت ضعفت بعد ذلك ،
حتى كتب الخوارزمي الى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلي بها نهارا ، وساعاتي فيها أسحارا ،
كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ ليلال ، وإنى بعد صبرى على فراقه بللده على وقع
سهام الهجر ، واسع المجال في ميدان الصبر...” الخ .^(١)

١٣ — ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول ، وإنما مضى يغرب في الصنعة
شعرا وثرا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهي أكثر الحروف دخولا
في المنظوم والمشور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدة قصائد كل واحدة خالية من
حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معرفة من الواو ، فأنبى أبو الحسين
الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب في أنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحباب لما بدا فالدمع ساكب

أمدامى منهلة هاتيك أم غزر السحاب

نثرت لآلى أدمع لم يفتقرها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمداني الذى صنع هذه القصيدة هو
الهمداني صاحب المقامات . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين .
والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف
الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا
لذلك ، إذ كان ألغ ، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .

(٣) ترجمة المسيوروش الفرنسية التى تفضلنا عطاها نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبي العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قالت إن صاحب كان شديد الرغبة فى استعباد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب إليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التى هوجم بها المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض صاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي إليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبي، فأجاب صاحب : أنه بعيد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وأدعى أن شعر المتنبي مُتَمَرِّز النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال صاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتى، ولا تتبع الزلات من طريقي . وقد قيل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وإنما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يروى، ويخبر قبل أن يخبر، فأسمع وأنصت، وأعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيرا . وقد بلينا بزمان يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمجادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفأويقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكموا رأيت بهائم مرسنة، وانعاما ^(١) مجفلة .

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير .
فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن نخبرنا أنه أعد للنقد عدته : بفحلس الشعراء ، وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواية المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أیده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبندأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي أعتمده ، وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أى القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مرّا لا يخشى انقطاعه وألتائه عليه" (١) .

ونحن نستعيد رأى ابن العميد في تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شهيد الأندلسي تأثر بهذا الرأى حين قال : " إن للحروف أنسابا وقرايات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة" (٢) .

١٦ - وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله في نقد قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

"ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا في أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسبطٌ *

ولعل لفظة الأسطرار في مرثي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض أبلعي ماءك» من القرآن و «أصدع بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده في آتتهك الستر .

ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة . فقلت : صدقت ؟ ولكنها استعارة حداد

في عرس !

ولما أحب تقرير المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ،

واستخرج زبد شعره، فقال :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأبجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المشال

فالمصيبة في الرائي أعظم منها في المرئي ^(١) .

١٧ — وخلاصة القول أن صاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقى من رسائله جزء في المكتبة الأهلية ببائيس ^(٢) . وفي زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) في دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

ويتمية الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أويكاد ، وفي أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردى . ومهما آحتال خصومه في الخط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدين كانت تمضى طعمة الفقر والجمول لو لم يسها يمنه وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين^(١) .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارىء كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدة أجيال . والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمي فهو في نثره عقل قوى يمتاز من العقول التي سبقت أو عاصرتة . وليس معنى ذلك أنه يفوقها جميعا ، فهو دون ابن العميد في سمو الغرض ، ودون بديع الزمان في حلاوة التعبير ، ودون التوحيدى في وفرة المحصول ، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال - والنبوغ الأدبي هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ . ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضه النير . وقد كان الخوارزمي شاعرا ، ولكن ديوانه ضائع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فمن الصعب أن نعطي القارئ فكرة عن حياته الشعرية ، وإن كان من السهل أن نجزم بأن نحوله في الشعر كان أمرا مقضيا ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضى والمتنبي والمعري وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس بجيد وإن لم يكن برديء ، من ذلك قوله في بعض الأصدقاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا مقبلا وإن أعسرت زرت لما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضياء أقاما
وقوله فيمن يطلب الصبأ وهو بخيل :

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض أملاؤهما فقرغ الكيس حتى تملأ الكاسا^(١)

(١) أظرفقة شعره في القيمة ج ٤ ص ١٢٧ - ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي ، أما موته ففيه خلاف ، فمن قائل انه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفي سنة ٣٩٣^(١) وسمى الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات . وكان الخوارزمي معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليدكرون انه قصده الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابيه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر: ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٢) .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت محتاج الى نقد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان في هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لأمرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم ينجح فيها بواحدة للأمراة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات للأمراة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث فى دار الكتب المصرية بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفى هذا دليل على أن الرواة شغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا يتكرأن حظ المرأة فى الشعر العربى ضئيل ، حتى ليتمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما الى منافسة الرجل فى الشعر ، وها نحن أولاء نعيش فى عصر من عصور النهضة فى اللغة وفى الأدب ، فأين الشواعر المحييدات ، وكم عددهن فى هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شئ فقد كان لما حفظه الخوارزمى أثر كبير فى أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتّاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر ما فيها حادثات : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والغض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه الى كشف عيوب المتنبي ومساويه . ولكنه اندفع فى ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذى كان يحقد على المتنبي لترفعه عن مدحه وإلشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمى للتنبي قوله فى الرسالة التى كتبها الى الحاجب أبى إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

”ونظرت الى أبى الطيب والى تناقض حكمته ، وتفاوت طرقى فعلته ، حيث قال فى سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال فى كافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضايق نفسه فى اختبار المتاع ، ويسامحها فى اختيار

المبتاع ، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة ، على عرض من لا يساوى بعة ، ويزن كريمة من كرائم شعره ، الى من لم تقم عنده كريمة ، ولم تعرف له قيمة ، لو رأى الطمع في حجر فأرلدخله ، ولو أتاها الدرهم من آست كلب لما غسله ، فلا جرم أن الناس كما استحسنا قوله ، استقبحو فعله ، وكما أعجبوا بشعره ، تعجبوا من غدره ، يشكر ثم يشكو ، ويمدح ثم يهجو ، ويشهد ثم يجرح شهادته ، ويعطى ثم يسترجع عطيته . وكم من حرفضله ثم ثلبه ؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه ؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها^(١) .

٥ — وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يعجب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال ، وقد جرّه ذلك الى التغنى بخلقه هو ، واحتفاظه بالود ، ووفائه بالعهد ، فقال ” ولكن في قيص أبي بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع ، واذا طلق لم يراجع ، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم ، واذا مدح لم يبطأ على عقب مديحه بالذم ، واذا طيب فكيه بالمدح لكريم ، لم يلطخهما بمدح للئيم ، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبين أن يتبرجن لإلاديه ، ويحتلين غير عيذه ، وإنما الغدر من أخلاق النساء ، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران ، وجذبها الى شق النسوان^(٢) .

فالمتنبي مؤث الخلق لأنه غادر ، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفى !
هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنبل ، وحكم على المتنبي بالحساسية ، لأن المتنبي يتغير ويتبدل ، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول .

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بغيه الأثيم : فساءت الصلات بينه وبين ابن عباد فتحول عنه وشغل بذمه وقدمه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه ، وأستطاع أن يرمى بمدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لاتحمدن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجوود حتى أنجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخسلا ولا كرما

وجرى في الناس ذكر الخوارزمي بانتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شبيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت اصباح الى المساء

وأشدد الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم قبل لي نعم
فقلت اكتبوا بالخص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء ، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثاني فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشؤم قضى عليه ، ويرجع السرفيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين في إسقاطه^(١) والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال في غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير في ذلك الحين ، وهو غلوهم في التشيع فأطلق يبكي القتلى من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه في نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور ”وأنخذل أنخذالا شديدا وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره“ كما قال ياقوت^(٢) .

وقد سبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكاتين مجرى العتاب ، وهي رسائل جيده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعد الحملة ويتأهب للزوال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم في بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه فيبيع ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن ”أما قبحه فلأنه عاتب بريئا ، ونسب الى الإساءة

من لم يكن مسيئاً ، وأما حسنه فلألفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدينيا
ظاهرها يغر ، وباطنها يضر ، وكالمري على دمن الثرى ، منظره بهي ، ونخبه وبى " وربما
أنشده :

يأبدع القول حاشا لك من هجو بديع
وبحسن القول عوذ تك من سوء الصنيع
لا يعبُ بعضك بعضا كن مليحا في الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن
ثياب بره اذا قبلها صافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعته وتعصبه ، ولم يخرق الثياب بتجنبه
وتسجبه » وهناك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ،
ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحاديين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل بأعباء الحياة
وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذلل لها نفسه ويجرح بها كبرياءه ، ألسنا نراه
يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا في بره ، فيكون هذا عند ظنه ،
فيكتب اليه رسالة تحجى فيها هذه الفقرة التي تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أنقذ انسانا من الفقر ، وأنقذه من مخالب الدهر ، وفكاه من إيسار العسر ، فقد
أعتقه من الرق الأكبر ، ونجاه من الموت الأحمر ، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان ،
والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان^(١) " .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل ، فكتب الخوارزمي كتابا جاء فيه :

”وأظن أني لو لقيتك عيلا لأنصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فاني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبو عني سهم الدهر اذا رماني ، وينفذ في اذا رمى اخواني ، فأقرب سهامه مني ، أبعد سهامه عني ، كما أن أبعدا عني ، أقربها مني“^(١) وهذه الفقرة تمثله جلدا صبوراً ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور بأعباء الحياة أنطقه بالحكمة في تحليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدثنا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير ، اذ كانت المآسي الانسانية كأسا تدور على الجميع . ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

”ورد عليّ خبر وفاة فلان فدارت بي الأرض حيرة ، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة ، وملاّ الوله والوهل قلبي وسواسا وفكرة ، وتذكرت ما كان يجعني واياه من سكرى الشباب والشراب ، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها ، فبكيت عليه بكاء لي نصفه ، وحزنت له حزنا لنفسى شطره“^(٢) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التي كان يعانيها الخوارزمي بين احداث زمانه جعلته يتشأم من صحبة من يقاسون لإدبار الأيام ، ويتفائل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى ”أن من تعلق بذيل المقبل أقبل“^(٣) ويرى كذلك أن ”أيام المحنة موج من تطا طاله تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته“^(٤) وعنده أن ”الاقبال يستر العيوب ، والدولة تجعل البعيد قريبا ، والجلد يرى المخطئ مصيبا ، والمحدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينه“ وكلتا الإقبال والإدبار

يحددهما القارئ في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية . وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكم من عقل ضائع ، وكم من عبقرية أُنحِدت وأُفِلت ، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهم بالأفول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أُملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله في سياسة النفس : ” ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية ، وانخلع عن ربة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل ، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع مأكله ، وقبيل أنامله ، وأن يجنى ببعضه على كله ، ويعين فرعه على أصله ، فكم من لقمة أتلفت نفس حر ، وكم من أكلة منعت أكالات دهر ، ولم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسدا كانت تنبؤ عنه السيوف البواتر ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، ونحرت بخرابه بيوت بل أمصار ... والمشتى غاش لنفسه ، قليل البقا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يتأزر عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه ^(١) “ .

٩ — ولنتنقل بعد أن ألمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكتون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دانا على فهمه لسر البيان ، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

”واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جاد ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهافت قولى اذ لا ينتك وجاملتك ، والى اصابتى الغرض وحزى المفصل اذ كاشفتك وصدقك ، وذلك أن الصادق معانٍ وماخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مغضوب عليه ^(٢) “ .

فسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع الى الصديق ، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفنّه مفتوناً به ، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صدق ، وفي الصديق وحده سر العبقرية والنبوغ ، ومن هنا سقطت آثار المتكلمين من الكتاب والشعراء الذين سحروا أقلامهم وعقولهم ، وباعوا ضمائرهم ونفوسهم ، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردد أصوات الأمرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال ، واذ ذاك لا يقوم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الحيل ، وانما يقاس نبوغ الكاتب وتوازن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور ، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التي تجعل ربها أباً وأخاً وأستاذاً وزميلاً لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو الهادي الأمين الذي يسير بنا في اودية الغرائز الانسانية ، فلا نعرف شر الزيف ولا نقاسى ضر الضلال ، وحين نصدق ونفنى في الصديق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبثوثة في ضمير الوجود ، فلا يغلق عنا سمع ، ولا يعزف عن أغانيها أحد من الموقنين ، وانما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا في الإيمان به من أصول الشر والخير ، والظلمات والنور ، والبر والفجور . فان الحياة كما تعلم ، مجموعة من حلم الانسان وجهله ، وضلاله وهداه ، والكاتب الانساني هو الذي يصدق ويفنى في صدقه حين يواجه ما في الانسانية من مشاكل عقلية ، وأزمات روحية ، وثورات نفسية ، ثم يتغنى بما في الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال ، أو يصرخ مما فيها من شح ولؤم وجور وطفيان .

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتغنى إلا به ، ولا يتحدث إلا عنه ، وانما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقاً ، يتغنى بالخير حين يؤخذ به ، ويتغنى بالشر حين يفتن به ، وفي صدقه السر كل السرفي فتح ما أغلق من

سرائر النفوس وضماير القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا خيرا ، وإن شرا فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصيبه الى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن إلى الاعتماد على سواه بخديربه أن يياس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى لهبرجه بقاء .

١٠ — ونعود فنذكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحياناً ، يسمو ويخلق حين يصدق ، ويهوى ويسف حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو ثره الضعيف ثقيلاً ممجوجاً كالمرأة الفانية حين تترين وتختال . ومن ذا الذي يسبق قوله في وصف رجل :

”إذا ناظره العربي صار أعجمياً ، وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق فخره ، فهو رفيق الجود وخليه ، وزميل الكرم ونزله ، وغرة الدهر وتحجيلة ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لا بل حضرة الأقوال والأفعال ، لا بل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات“ .

وأنقل من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

”أذكره وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وأستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة“^(٢) .

والحرص على السجع في مثل قوله : ”لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الأحد“^(٣) ، فإن كلمتي السبت والأحد لم تقعا هنا إلا ابتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من التزام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتمل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .

١١ — والحوارزمي حين يحيد يسمو سمو عظيمًا، ويقدم من صور الجدد والهزل ما يمتع النفس ويضطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يخرق شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد آتفق للحوارزمي أن شكا وروده إلى بعض النواحي بعد ما قاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو في الدنيا . قال "وأول ما صر بي سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرة الحمّار، على أن الحمّار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأني كنت بين حمارين، إلا أنني كنت بين جنسين" (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره، ومتنفس خاطره، ومجال بصره، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام في حاقها وجه صبيح، وتقلب في أطرافها قد ملّح . إلى هنا يمضي الكلام فتتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الحوارزمي يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك، ثم يقول "وإنما أذكر بقلعة طولها باع، وعرضها ذراع، أعني باع البقة، وذراع الذرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها، تسقى بالمسقط صباحا، وتكت بالخلال مساء، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين" (٢) .

١٢ — ولكن أمثال هذه الفكاهات تترك الطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد، فتلك فقرات تصيدناها من رسائله، وهيئات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذي قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان، فالفكاهة حين تقع تحت سن قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجنل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا في كلام أبي الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ أصغر من عبقرة بقة، وأصغر من أنملة نملة » (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالي : كتابك أقصر من لبقة، وأصغر من بقة، وأخون من ذرة، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ نيفة) . (٣) ص ١١

نستقي أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدم لقرائنا صوراً من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترفها واكتوى بناها وكابد ما تقضي به من التجميل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يغفلوا عنق ذلك الرجل بشيء من المال يقدمونه إليه ثمناً لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصورها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأنقالها أثراً في كبت ذلك الروح وحبسها في حدود الجذ والرزانة ، وحرمانه من نسائم اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جد الخوارزمي وجدناه جداً رصيناً ينبئ عن نفس ساءتها الأيام سوء العذاب ، وأول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما يتال اللثام ، وإنه ليدكر أن " البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله " وأنه يغار على الأدب الكريم ، من المتأدب اللثيم ، وينشد في ذلك :
وأرثي له من موقف السوء عنده كمرثيتي للطرف والعليج راصبه

ويود أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كتب الدفتر بقنطار ، فلا يتأدب إلا شجاع كمي ، ولا يحرز الدفاتر إلا جواد سخى^(١) .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعاني آلاماً كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقه من بعض الطبائع الدينية التي يورثها العلم والأدب ألواناً من العظمة البغيضة والكبرياء المحقوت ،

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليم لهم ما ينتفون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسمائهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى روعه أنه مغلوب ، فله فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه ، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

”طلب الشيخ نسخة من رسائل فرحبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من ماء أجفانى ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البررة ، ليكتبوه بيد العصمة ، ويخلدوه فى بيت الحكمة ، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولسانى أدق حساب ، وطالبت شيطانى بهذيبه وتنقيحه أشد طلاب ، ولقلت لحاطرى دقق طرزك ، وجود برك ، فان المبتاع كريم ، والثمن عظيم ، وقد قيل : الراوية أحد الشعارين ، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين^(١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو به وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : ”إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شرها خيار“^(٢) . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى اتبيننا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

ووزن فضله، وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلبه وهي حالة جعلتنا نرى المتنبي في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — ولخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضاً بشعاً رهيباً، مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار، حتى آتقرو الأغنياء، وأنكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، ومحمد صاحب الغلة غلته، وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أحرب البلاد، بل أحرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وحجب الفقر إلى أهل الغنى، وحتى لقب بالجراد، وكنى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم في أيامه، أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله . فليتة إذ أوحش الرجال، حصّل المال، وليته إذ ضيع المال، أرضى الرجال، ولكنته حرم الأئنين، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين، ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الجحاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين، ولا يزدجرد الأئيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من النبيين والصدّيقين، ولا فرعون في بنى إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين^(١) .

١٦ — وفي الخوارزمي يظهر جيداً في هذه الصورة، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة العسف، فأشار إلى أنهم كانوا قبل ورود ذلك الوالى في سكر الغنى وغفوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أذلهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفي قول الخوارزمي ”حتى افتقر

الأغنياء، وانكشف الفقراء“ دقة بالغة، فإن انكشف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنى افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهناك البؤس الجائر، والهول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفارت ذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم ”وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود“^(١). وفي مثل هذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك العصر يبالغون في بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله ”حتى صار الدرهم في أيامه أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أنعاله“ من العبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر الهجاء. وذكر الحجاج ويزدجرد وفرعون في الحديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على السنة الأقدمين.

١٧ — ولخوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكننا نجد فيها كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله في خطاب تلميذه :
”كتابي هذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أخرت، لما أمضى فينا الفراق حكمة، ولا أنفذ فينا سهمه، ولا أقمنا جميعاً أورشلنا معا. واني لأظلم الفراق إذا شكوته، وأتعنف الدهر إذا هجوته، وبیدی ضربانی، ومن سهمی رمیانی. فأنا كالقاطع يده بيده، والقاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص البين وكربه“^(٢)
والفقرتان الأخيرتان تكرر نقيض. والمعنى كله مأخوذ من أبيات حورها الخوارزمي.
وهي في الأصل الذي أثبتته القالي :

تطوى المراحل عن حبيبك دأباً وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي.

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان.

ألا أقمت ولو على جمر الغضا قلبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : ” كانت أرق من حاشية
البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند،^(١) بل من التقد،
وأعقب من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد
البعد، ومن الوصل في أثر الصد، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء
الوטר، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكرى، أو نهار الحيارى^(٢) “. .

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ - بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمي في جده وهزله فلسفة خاصة يقف
عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه
الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه ، فليست
رسائله في جملتها إلا شذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل
في تلك الرسائل التي تعدّ من ذخائر الأدب العربي ، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير
من المتأدّين ، فانه لم يهب شطرا من منشوره في الدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ،
ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به الى سماء من سموات
الفن الخالص الذي ينسينا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي
أنه أشعرنا بوجوده ، ووقفنا بجذبه أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء ، ولها
في عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفى به .
فإن الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق
والجمال .

(١) القند : غسل قصب السكر . (٢) ص ١١

١٩ — ولقد آنحاز الخوارزمي الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه . وفي صف هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دللتنا على أنه رجل جلال ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشيعه بالحق الأ سود على بنى أمية وبني العباس . ونستطيع أن نقول إنه في هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها في الحياة الإسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهينات حين عرض للخلفاء في ألقاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان .

ومن الحق أن نقرر أن الرسالة المطولة التي بعث بها الى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها وكأنها صاعقة تصب على رؤوس من عادى من الرؤساء، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي وهو أزرق الثياب مسموم اللعاب، كالحية النضناض . وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكومه ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : " فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد آتتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة : فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر^(٢) " . وهو تارة متحزب حقود يعدد آثام الخلفاء من بنى أمية وبني العباس ويذكر ما آتتفروا من الجرائم في تقريب المغنين، وإقصاء الفاطميين، وله في ذلك لدعات مسمومة يعف قلنا عن تفصيل ما أنطوت عليه من خبيث الدم وفاحش الهجاء .

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير الى أن في تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوج الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على أنسة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي وشمس الكلبي والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدي، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للخط من على بن أبي طالب، وعرفنا

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُزِقَ ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البختری ومروان بن أبي حفصة الأمويّ وعبد الملك ابن قُرَيْب الأصبغي وبكار بن عبد الله الزبيري وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب العبشمي؛ هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتعامل على آل أبي طالب^(١) .

وهذا كلام ليس جديدا في ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ - قابوس بن وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتاباً صغيراً اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتي الفاضلين نعيان الأعظمى ومحّب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالى قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ - أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتّاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريحاً لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالى" . ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه نحر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن أنهزم نحر الدولة ولجأ الى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفتر قابوس لاجئاً الى خراسان . وبعد سنتين استطاع نحر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس في جملة، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفى نحر الدولة سنة ٣٨٧ أعدّ قابوس حملتين عسكريتين واستردّ ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوءاً بالقلقل والاضطرابات فانتهى الأمر بخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاسية التي عاها في حياته السياسية أثر بليغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذي يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عباد الأندلسي ، فكلاهما بكى ملكه وحظه ومجده ، ولننظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائراً كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى وأصبح جمعى فى ضمان التفرق
فقد بقيت لى همّة ما وراءها منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مرّكبا وتكره ورد المنهل المترقى
فان تلفت نفسى فله دزها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدّين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن تشبت أيدى الزمان بنا ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفلى وقصرى فضل ما أرخيت من طول
أسرفت فأقتصدى، جاوزت فأنصرفى عن التهور، ثم أمشى على مهل
مخدمون ولم تخدم أوائلهم مخولون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى فأحس منها فى الفؤاد ديبا
لا عضولى إلا وفيه صباية فكان أعضاى خلقى قلوبا

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الإنشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد غنى بدراسته من المتقدمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود إليها الأدباء بالنقد والتحصيل، لأنها مكلمة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواع لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من العوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المجنح كقوله :

”صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه“ .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قبل أن فى أوله سجعا وفى آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أول القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أول القرينة الثانية . ومنها الممثل كقوله :

”ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

”أين الطبع الذى هو للصدود صدود، وللتألف ألوف ودود“ .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، والتألف وألوف من جنس واحد .
ومنها مشابهة الصور كقوله :

”إذا حالف، فأحسبه قد خالف، وإذا أعار، فأحسبه قد أغار“ .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : خالف وخالف فى صورة واحدة، وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وأنظر كيف علّق على قوله :

”قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار“ .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتقى به قرائهم ، فإننى قد أجلت الفكر فى عدة ألفاظ رائية الأواحر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع^(١) .

وفى مكان آخر يقول :

”وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مبين ، فى الفصاحة والعدوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على السنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوة العلوية^(٢)“ .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقا من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعا من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها تريد للصنعة التى عرف بها المتقدمون . وكل ما تمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن أن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن تقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلا قول الثعالبي فى الزوزنى الكاتب :

”يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“ .

فإن هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حالت ما فيها من استعارة لأعيانك الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوزة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبي أيضا فى أبى الفرج البغيا :

”له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام“ .

فان الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يحلّق أحيانا ويسفّ حيناً . فن المستجاد له هذه العبارة :

”ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف ثرا بن العميد :
”ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيري زئيره ، وما ساجلت ببعثي جريره“^(١) .

فان الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم أنتقل فقابل بين الصغير والزئير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله ”وما ساجلت ببعثي جريره“ فان القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى البعث وجرير من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

”حتى يثمر ما أزهى من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل“^(٢) .
لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :
”الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمئها العجائب“ .
فان الانتقال من الشجرة الى البيضه شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

”أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب ، أم من صفاقة الدهر مجنّ نبوه فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إبابه فقد أبى على كل علاج“^(٣) .

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن أنظر قوله :

”فأولئك المهمل فما أحراه بأن يلجم فيه مسرج وعده، وينتج بالنجح ما ضمنه نسج^(١) يده“ .
فإن هذه الأخيلة قليلة الأتلاف .

٧ — ومن الحق أن أقرر أنني أجد صعوبة في البحث عن مقاتل هذا الكاتب الفنان،
فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التآلف والآتساق . ويعجبنى قوله :

”فن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هوى^(٢) العقاب“ .

وقوله :

”ولم لا يستردّ عازب الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون ، ويستعيد غائب الفكر
يفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون، أظنه يقدر الاستغناء غنى هو الغنى والغناء، ولا يدرى أن
الآلتواء على^(٣) هو اليل والبلاء، ويخال أنه مكثف بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنى كل لبعضه،
وطول في عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والخواف، وعمل الرماح بالأسنة والعوالى^(٤)“ .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيها الغلو والإسراف ، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها
نسمة من القبول . وإليك قوله :

”بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصل تراكيب السماء، وألف
بين النار والماء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد منائر
الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم
صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء
النازل، وعرض الشيطان بمعرض الانسان ، وكحل^(٥) الحور العين بصور الغيلان ، وأنبت
العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار^(٥)“ .

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .

(٥) ص ٥٥

٨ - وهذه القطعة التي نعدّها من المبالغات والتهويلات ، ألا تدلنا على شيء ؟ إنها لتدلنا على أن الانسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم في الأرض والسماء ، والماء والهواء . إن هذا الكلام الذي نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس ، أو قاله ملك إنجلترا اليوم ، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف . فقد أستطاع الانسان في هذا الجيل أن يكبد ضوء الشمس والقمر ، وأن يسخر الهواء ، وأن يؤلف بين النار والماء ، وأن يسد مناخر الرياح ، وأن يطبق أجفان البروق ، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال . وقد ألبس الليل ضوء النهار ، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار .

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورا عجيبة من أحلام الانسانية . فهذا الطيران الذي أصبح قوة القوي في هذا العصر كان حلما يتردد كثيرا في أخيلة الأقدمين ؛ فقد تصوروا لسليمان بساط الريح ، وقدرّوا أن سيكون في الجنة طيارون ، ولم يتخلّوا الملائكة إلا مجنحين ، لأنهم كانوا يرون القوة الكاملة في أن يطير الانسان من أفق إلى أفق ، ومن قطر إلى قطر ، كلما بعثته الدواعي وأهابت به الظروف .

فما نراه مبالغة في كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانساني الذي قدر ما ينتظر له من البأس والقوة في عالم الوجود . ولنتظر كيف يقول في نفس الرسالة التي اقتطفنا منها القطعة السالفة :

” كيف يُرَهّد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، ينظر أمره ليمتثل ، ويرقب نهيه فيعتزل ؟ وكيف يُهَجّر من تضاءلت الأرض تحت قدمه ، وصارت في الاتقياد له نكده ؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت ، وإن أحست منه بحفوة أجذبت ؟ وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام ، وأنصاره الليالي والأيام ، فمن هرب منه أدركه بمكائدها . ومن طلبه وجده في مراصدها ؟ وكيف يُعرّض عن تُعرض رفاة العيش بإعراضه ، وتنقبض الأرزاق بآنقباضه ، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال الجدد إذا تهلل ؟ وكيف يزهى على من تحقر في عينه الدنيا ، ويرى تحته السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، وأستوى على

ذات الحبك، فبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المحجرة، وأثرت بآثره أوضاع الثرى^(١) .

وإني لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التي مرت بذهن الانسان الغابر، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هي اليوم أيسر ما يأتي به الانسان في أعوام الحروب . وستبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح . وسينتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي يتصورها الإنسان الحديث . ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه في هذه الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذي تعلق بأهدابه الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفاني الذي يزعمه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات . وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقرّرت في ثقة مصحوبه بالرفق والعطف أن سيكون للانسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم، وروح وريحان . ولا أكتم القارئ أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين في ظلال المعتقدات الخائفة التي تندربأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه .

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الاثار المادية والمعنوية التي يفتي الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود . والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، عليهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إني لأذكر ، وأنا أكتب هذا ، أن دنونزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأن الشاعر الذي يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التي حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هي الأمنية الباقية التي يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التي يتمتع بها الناس والتي صارت مألوفا لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه فشورا من المعارف الأولية في هذا الباب . فليت شعري كيف يحيا الناس بعدنا ؟ بل ليت شعري كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟

في اللحظة التي أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسي بعض الألم في الأمعاء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت في قصر حياتي على طائفة من الأعمال الأدبية التي لا تقدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتي كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمامي إلا هذا الأمل الصغير : وهو أني سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلني به ، وشغل معي جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة في أكثر ما يكتب ،

حتى في الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذي يفضى بالإنسان الى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم القانى الى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

”إننا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ولو لم يكن لنا هذا التدريب والممارسة للشاهدات ، ثم القياس بها على المغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف حيوان ما على صورة مخالفة لمعهدنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه أن كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارى بحيوان لم نشاهده في صورته الخاصة به . فحائز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارى جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول في الشرف والكمال ، فلا توجد في شيء من أحواله حال تنافى الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، متزها عن الزوال والانقضاء^(١)“ .

وفي رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارى عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : ”هلا فعل ذلك فى الأول ؟“ لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيرا مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فأنا أكتب هذا فى غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

الستائر لا يهديني فيها غير الكتاب والمصباح، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال .
ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدري القارئ في كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنيق ؟ وهل يعرف في كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفرق في حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الاقتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! ففي كم جيل شاب ذلك الغراب الذي جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المتراعى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، فى مدى مالا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال .
اذن فلنسمح للانسانية أن تحلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ - وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هى تقديره لنفس الحيوان ، فعنده أن قوة الفكر والتميز كامنة فى جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه فى طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته فى دفع المضار عن نفسه وحريمه ، ومستغنيا فى تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أهدق وفاء وحُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وأعتاده، ثم ما كان يجلبته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا إلى التزين بزينة متخذة من خارج، وإنما يغنيه حسن شعره في مختلف ألوانه، وأنوار ريشه في صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمدته على طبع واحد: لا يتبدل حالا بحال، ولا يتغير بين غدق وأصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

”كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجميلة، والحصال المرضية، في سائر الحيوان موجود، وفي الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة، ومعرفة أفلاطون وأرسططاليس، وفيثاغورس وانبذقليس، وأرشميدس وبطليموس، وهرمس وواليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقي يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم، أن يعر الأطباء طب لهذا الحكيم العالم، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف في الناس معدوم“ .

ولقابوس آراء في الفلك والنجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم، يضيق عن نقدها المجال، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك، والعلم يمضي بأقدام راسخة في تحقيق أوهام الأولين، وفوق كل ذي علم عليم^(٢).

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهي عنده منقصة للآباء . ومن رآه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء أبنته : جاء أبو فلان وأبو فلان، أى أن هذا والد فلان وذلك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه، فلا يعترض الاشتباه فيه، فلما دارت الأيام على ذلك، صارت هذه النسبة رتبة لأرثك) ويضيف قابوس الى هذا أن التكنية ”ترتب برتبة أهل الدمة، واستعمال لرسوم تلك الأمة . وفيح سمح بالمسلمين، أن يكونوا بسماهم منسبين“ أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى تكاد تجزم بأن لكل كاتب كنية، والكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكري والحسن بن عبد الله العسكري فهما متساويان في التسمية وتفرق بينهما الكنية : فأحدهما أبو أحد، وثانيهما أبو هلال .

ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا في أصل التكنية ، ولكن لا مريية في أنها صارت عادة عربية . فإن الجاحظ يتحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكنى بأبي محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبي الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكنوا أحد من رعاياها قط ولا سماها في شعر ولا خطبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لدوا أديها وظلوا تركيها كانوا إذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .
والكنية مألوفة في شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلقى الأسماء في الناس والكنى كثيرا ولكن ميزوا في الخلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبي صفير الهذلي :

أبي القلب إلا حبا عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكتنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه في ليلة من ليالى رمضان في غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكأهم أبلغ الفرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التشريف .

فإن صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فإن انتقالها إلى الجوار الاسلامي في هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعاني في كل شيء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيال !

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ - تلك شخصية جذابة أمتحنت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة لولا شفاعته الشافعين ، وظل يعاني أحداث الأيام الى أن توفى فى شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلاً ألوفاً لحلوائى الشرائع بليغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئياً ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فأمتنع ، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل - والصابئون يحرمون الفول والحمام^(١) - ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه^(٢). وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق، كريم الطبع، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفى حفظه القرآن كفاية لعصمة روحه من وضر الشرك وقبح الزيف ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصدقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(١) ص ٣٢٤ ج ١ باقوت . (٢) ص ٣٢٦ ج ١ باقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للمسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبيل النفس ، وعظمة الروح . فليس بالبسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجلاً من أن يعادى ويراها لذلك جدرا بالحفظ والإجلال .

٣ - وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره ، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وأفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف^(١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم نخبته وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا ، وهى في طولها محكمة النسيج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق .

ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور في تلك القصيدة جانبين من أهم الجوانب في بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب في ذلك القلم البليغ . ولنتنظر كيف صور حزنه وتفجعه في قوله :

بُعْدًا ليومك في الزمان فإنه	أقذى العيون وقت في الأعضاء
لا ينفد الدمع الذى يبكى به	ان القلوب له من الأمداد
أعزز على بأن أراك وقد خلت	من جانبك مقاعد العواد
أعزز على بأن يفارق ناظرى	لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز على بأن نزلت بمنزل	متشابه الأجداد والأوغاد

الى أن يقول :

يأليت أنى ما أقتنيتك صاحباً كم قُنية جلبت أسى لفؤادى
 برد القلوب لمن تحب بقاءه مما يحمر حرارة الأكباد
 ويقول من لم يدركنك إنهم نقصوا به عدداً من الأعداد
 هيات أدرج بين برديك الردى رجل الرجال وأوحد الاحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والانتساب :

الفضل ناسب بيننا ان لم يكن شرفى مناسبه ولا ميلادى
 ان لم تكن من أسرتى وعشيرتى فلائت أعلقهم يداً بودادى
 لو لم يكن على الأصول فقد وفى شرف الحدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنافت بيننا بمعاود أبداً وليس زماننا بمعاد
 ضاقت على الأرض بعدك كلها وتركت أضيقها على بلادى
 لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ومن الدموع روائح وغوادى
 سلوا من الأبراد جسمك وآئننى جسمى يسيل عليك فى الأبراد
 إن الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسيلوان غير جواد
 سؤدت ما بين الفضاء وناظرى وغسلت من عين كل سواد
 رى الحدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد
 ما كنت أخشى أن تضن بلفظة لتقوم بعدك لى مقام الزاد^(١)

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين،

وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة ، وأستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلاً^(٢)

(١) مجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صائبًا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسب الشريف الرضى منزله الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته ، ولنتظركيف يقول :

وصحائف فيها الأرقام كُمنَّ مرهوبة الإصدار والإيراد
تدعى طوائفها اذا استعرضتها من شدة التحذير والإبعاد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزم من هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرون إذا ونى وعنان عنق الجالح المتمادى
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأعدوة ورفعته شأنه بين النابيين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب على فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبه ، وأنا ان مدحتك تنكر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك ، لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمس ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعري عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم^(١)، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمثني وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حفظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ — وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت ، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً ، ولكن الصابى احتمل عدوان زمانه وظلم أيامه ، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال ^(١) .

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استبعاد الكتاب والشعراء ، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا فى عصره . وفى أخبار الصاحب ^(٢) اعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب .

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الرجوع والحنين . لقد عرف حلو العيش ومره ، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس ، وتلك أزمة يعانيتها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتبدل النفوس . ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء :

” لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال ، لضاق على فيه المرتكض والمجال ، لأن الناس عندنا ، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم ، طائفتان : طائفة مجاملة ترى أنها قد وفئت خيرها ، إذا كفتك شرها ، وأجزلت لك رفدها ، إذا أجنبتك كيدها ، ومكاشفة تنزرو إلى القبيح نزو الجنادب ، أو تدب ديبب المقارب ، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق ، وإن غولطوا تلتحموا بلثام النفاق ، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام :

أيارب كل الناس أبناء علة	أما تعثر الدنيا لنا بصديق !
وجوهها من مضمر الغل شاهد	ذوات أديم فى النفاق صفيق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون أو شجا لحلق
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحنةاء حر حريق
اخو وحدة قد آنستنى كأنى	بها نازل فى معشر ورفيق ^(٣)
فذلك خير للفتى من ثوائه	بمسبعة من صاحب وصديق

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٣٦ و ٣٣٥ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠ و ٣٤١ ج ١ ياقوت .

٦ - وبمناسبة هذا الشعر نقترح أن الصابي يمتاز بين معاصريه من الكتاب بركة الشعر وعذوبته، ويكاد يتر على أنه شاعر خل، ولهذا أهميته في تقدير كفايته الثرية، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أُعْزِم به معاصروه هو نثر شعري، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في القدر الشيق يشبه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد	خفنا عليك به ظمنا وعدوانا
الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا	وأنت أحسن ما نلقاك عريانا

وقوله في أثر العناق :

الى الله أشكو ما لقيت من الهوى	يحارية أمسى بها القلب يلهج
إذا أمترجت أنفاسنا بالتزامنا	توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجمة	ووجدى ما بين الجوانح يلحج
أضفت الى النفس التي بين أضلعي	بأنفاسها ننسا الى الصدر توج
فان قيل لى اخترأيماً شئت منهما	فإنى الى النفس الجديدة أحوج

وبذيع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ، فهو عندهم : "من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره"^(١) وكذلك كان الصابي : فهو يجيد في الصناعتين لإجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابي

١ — أما نثر الصابي فهو في الأغلب موضوعي، لأنه في أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التي يخدمها، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهي مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأول ما يروعنا من نثر الصابي فناء روحه في البيئة الإسلامية التي يعيش فيها، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدث بلغته، وتجري تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن، وهو في هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : " لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظّل، وخالق الأرض وما تقلّ، الذي دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبين بجلى برهانه، عن خفى وجدانه، وآستغنى بالقدرة عن الأعوان، وآستعلى بالعزة عن الأقران، البعيد عن كل معادل ومضارع، الممتنع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذي لا يزول ولا يحول، العادل الذي لا يظلم ولا ييجور، الكريم الذي لا يرض ولا ييغل، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم فآدعوه مخلصين له الدين^(١) » .

٢ — ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابي يستقى من نفس المنبع الذي آستقى منه الشريف، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب ذلك العصر كانوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأتباعه خصوصا في المواطن التي يخاطبون فيها الجماهير . وفي ذلك دلالة على أن الروح الدينية كان لا يزال حافضا لبعض سموره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بالباب الرجال .

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابي . وانظر مثل هذه الفقرة في ص ٤٣ و ٤٤

٣ - وورود ثمر الصابي في شئون ادارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبؤ عنه ميول القراء في العصر الحديث . فإن الكتابات التي تعنى بمشاكل اليوم الحاضر وتشغل بالمتنازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقائية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا، وإنما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في حملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وإنما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمر المؤمنين بعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها ، وعدته التي يعول عليها ، وبأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاطلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا منالكة ولا معاملة إلا مع طاعته والاحلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه وانتهوا إليه“ .

٤ - فإذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التي كتبها الصابي على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه وكتبه الكافي السديد الموفق
أؤازره فسيما عرا وأمهده برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بي نهج الملا وهو دارس ويفتح بي باب الهدى وهو مغلق

فيمتأى يمتأه ولفظي لفظه وعيني له عين بها الدهر يرمق
 ولى فقر تضجى الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
 أرذ بها رأس الجحوح فينتنى وأجعلها سوط الحرون فيعنى
 فإن حاولت لطفاً فماء مروق وإن حاولت عنفاً فنار تألق^(١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للملوك يحز فى أعدائها بظي من القول البليغ حداد
 من للمالك لا يزال يلمها بسداد أمر ضائع وسداد
 من للجحافل يستزل رماحها ويرد رعلتها بغير جلاد^(٢)
 من للوارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد^(٣)

٦ - وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابي ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلاً فنأنا يحكم القول ، ويجيد الوصف ، وهذه الفقرات قليلة أيضاً ، وهى غريفة فى بلج إسهابه وتطويله هنا وهناك ، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

”وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون ، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون ، مرة تقدم بهم الآجال ، ومرة تجمع بهم الأوجال ، ثم تدانى الفريقان ، والتقت حلقتا البطان ... فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم ، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم ، وأخذ الأولياء منهم بالخنق ، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق ، فلما استعرت الملاحمة ، وعلت الغمضة ، ودارت رحى الحرب ، واستحز الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح ، وتصالحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) البتة ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرحلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف

الرضى . (٤) ، البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير ، ويقال التقت حلقتا البطان للامر اذا اشتد .

في الهزيمة، وأعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وأستلحمتهم السيوف، واحتكت فيهم الختوف، وأخذ المسلمون منهم النار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار".

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خيرا بنفوس أهل عصره، وكان لذلك موقفا في الوصول إلى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والثائرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى "سياسة القول" يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه "لغة المنشورات الرسمية" فيما كتب عن المطيع لله إلى الوزير المهلب سنة ٣٥١ :

"وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها . وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله، والذين يكتفون بالإشارة، ويحترقون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق المتأخر بالمتقدم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما إذا كان ذلك مما يتعلق بعمالات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، إلى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكرا، ولمن تأخر فيها مبصرا، ولأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورهم، ولا أن يقتصر على اللجة الدالة في مخاطبة جمهورهم، حتى إذا آستوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به، وفقه ما دُعوا إليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين، ولا أستراية المستريين، اطمأنت قلوبهم، وأنشروحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، واستمر الاتفاق فيهم، وأستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة في المنهاج، ومحروسون من جرائر الزيف والأعوجاج، فكان الاتقياد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلدون مسلمون، وطائعون مختارون، لا مكروهون^(٢)

مجبورون .

٨ - على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تنحو منحى الرسائل الاخوانية، وتجري فيها المعاني طليقة رقيقة كأنفاس العتاب، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

”أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر الممتدة عنده لك، أن يحجم صفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يعيبها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناضرة التي تصان عما يهذيها، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها“ .

غير أني ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا لك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عني وليس من حق عني غص أجفانها على الأفضاء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

”قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلحظه، الوفي بما يحفظه، نحوك ياسيدي ومولاي أدام الله عزك بالوديعه، وإنا نقلت من وطن الى سكن، ومن مغرس الى معرس، ومن مأوى بر وانعطاف، الى مشوى كرامة وإطاف، ومن منبت درت لها نعاؤه، الى منشأ يحود عليها سماؤه، وهي بضعة مني انفصلت إليك، ومرة من جنى قلبي حصلت لديك، وما بان غنى من وصلت حبله بجملك، وتخبرت له بارع فضلك، وبؤاته المنزل الرحب من جميل خلائك، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك، ولا ضياع على ماتضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك“ .

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابي استمد روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون في ذكر ابنته فطر الندى المنقولة إليه^(١).

٩ - ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظته الثعالبي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يجتهد في استغلال ما ترك الأتولون من بديع المنظوم والمشور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم .

١٠ - وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها نثر الصابي فإننا نعترف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى - ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزاهرة التي وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلبه ، فاننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظاً إلا في أحوال قليلة تغتفر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابته مع ما فيها من الترام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكاف ويغلب عليها الطبع .

الثانية - سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولاً عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثراً قوياً في رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظة عذها عضد الدولة تعريضاً به ، وأسرّها في نفسه إلى أن ملك العراق فخبسه وأستصفى أمواله^(٢) . وقضى لذلك بقية أيامه في عسردائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحياة .

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة . (٢) ص ٣٢٧ ج ١ بانوت .

١٢ - أبو عامر بن شهيد

آل شهيد - حياة أبي عامر وصباه - ضجيره من المرض - وصاياه المحزنة

١ - "ابن شهيد" اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه رومي^(١) . وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي ، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير^(٢) ، وكان كذلك من أبرع الشعراء ، وهو الذي يقول :

تري البدر منها طالعا فكأنما يحول وشاحها على ثؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى ومفعمة الخلال مقعمة القلب^(٣)
من اللأى لم يرحلن فوق رواحل ولاسرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة وشدوكا تشدو القيان على الشرب^(٤)

٢ - ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن ثقل سمعه حجب عنه الاتصال بالملوك والوزراء^(٥) ، ولكنه آتقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، فجاء شعره وتثره فى أعلى درجات البيان .

(١) فتح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن . (٢) فتح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمفعم بالقاف من القمع بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزبادى ميل وارتفاع فى الألبين ، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم . (٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرارة

ما كنّ يجتمعن على الشراب . (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ - كان هم أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك^(١).

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب، فالحياة عنده وجه أصبح، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بدیعة، فإن خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقیل.

وما ظن القارئ برجل يبيت في الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شمت بديره	نحر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فنية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرین تحشماً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزوره ^(٢)
يهدي لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفره التماح خفيه ^(٣)
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلافه والأكل من خزيه ^(٤)

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح في كناس) فتصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طي القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبغى منزلاً	لوصل التبذل والانقطاع
بجاءت تهادي كمثل الرءوم ^(٥)	تناغى غزالا بروض البقاع ^(٦)
وجالت بموضعنا جولة	فحل الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب نفع الطيب (بالمهمل في بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد في الطرائف ، كان بقرطبة في رفته وبراعة ظرفه خليعها المهمل في بطالته ، وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجراً هم على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) الخمر : المنوع ، والخشف بالتثنية ولد الظبي . (٣) راجع نفع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الروم : الظبية الألوفا . (٥) والبقاع ما ارتفع من الأرض .

أتتنا تجتر في مشيها فلت بـواد كثير السباع
وريت حذارا على طفلها فناديت يا هذه لا تُراعي^(١)
غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه كآة المصاع
فولت ولمسك في ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع^(٢)

٤ - وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :
إن الكريم إذا نالته مخمصة^(٣) أبدى الى الناس شبعاً وهو طيان
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه غمر بماء البشر ملاّن

أو حين يقول :

ألمتُ بالحب حتى لو دنا أجلى^(٤) لما وجدت لطم الموت من ألم
كلا الندى والهنوى قدما ولعت به^(٥) ويلي من الحب أو ويلي من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ، وأشدّهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له في الكرم والجود أنهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق)^(٦) .

ومن العجيب في تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف ؛ فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته)^(٧) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب في سوء الحال !

(١) الكآة جمع كمي وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .
(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى (ربا وهو ظمان) : أظفها مش النفع ص ٤١٠ ج ١
(٤) وفي رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفي رواية أخرى « وذادني كرمي عن ولعت به »
وهي أفصح من الرواية الثالثة « وعاقني كرمي » . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١
(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكته في شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل في طبعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه يجز عن الظفر باستقامة الخلق في حياته الشخصية : فلم يكن لزوجه ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تفرد بالكمال !

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاورة الجمال والصبيان ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتملكه على التثبت بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طأ ابن عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه القالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا تقلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، وأعتادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فإنه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه ^(١) " .

فلنتصور قسوة المرض التي تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله في ذلك :

أنوح على نفسي وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة	على وأحكما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبي العصا	على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة	كشفت ودار كنت في المحل وبلها
ورب قريض كالجريض بعثته ^(٢)	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو	أخوفتكم شعاء ما كان شكلها
عليكم سلام من فتي عضه الردى	فلم ينس عينا ثبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهون نكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الريق ، وهي في نسخة الذخيرة بالخاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علة التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تجني بعض إخواني على وفارده عني، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائي لذلك المتجني مع بعض إخواني وأعزهم علي، فلما رأي موليا عن ذلك الصديق أنكر علي وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيهمما حتى لحقاني، وعزم علي في تكليم صاحبي، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظماء، حتى جئنا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فاطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى كيف تدأوى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة لكن إلتى يعدها دعوى^(١)

وحدث المصحفنى أيضا قال : دخلت عليه يوما فى تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام : هجوتنى يا أبا عامر دون أن تثبت فى أمرى، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال : على تكفيره بما يحويه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا اليه فأنشدنا :

ألا أبى زائر فى العتم بوجه يحلّى سواد الظلم
تكم بالليل فى ظله وهل يمكن الصبح أن يكتم
أتى يستجير الينا به كما جاور البان رطب العنم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات :

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيدة بقية طويلة يجدها القارىء فى الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تمنيت أنى ساكن فى عباءة
خليلى من ذاق المنية مرة
كأنى وقد حان أرتحالى ولم أفز
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى
عليك سلام الله إني مفارق
فلا تنس تأبيني اذا ما فقدتني
وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
قديم من الدنيا بلمحة بارق
يدا فى ملمأتى وعند مضايقي
وحسبك زادا من حبيب مفارق
وتذكّار أيامى وفضل خلائقي^(١)

٦ — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يُبكي حين يموت ، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم
إذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب^(٢)
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر
يحل عرى الجبار فى دار ملكه
وليس عجيبا أن تدانت منيتى
ولكن عجيب أن بين جوانحى
يمركنى والموت يحفر همتى^(٣)
وجوه مصابيح النجوم الزواهر
بكوا بعيون كالسحاب المواطر
أقلّوا فقدا مات أبناء عامر
بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر أخرى
هوى كشرار الجمرة المتطاير
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقاً عجيب ، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو ، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد ، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من النخبة . (٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ ، وهى أكثر . وازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر . (٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخصَّ عمراً بأزكى نور تسليم
 وقيل له يا أعز الناس كلهم شخصاً على وأولاهم بتمكريم
 الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
 ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبي فيك للوم
 إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حاك الله تقديمي
 عشنا رفيقين فى بر الهوى زمننا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
 فشتت نوب الأيام ألفتنا قسراً ولم يغنها طيبي وتجمي

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع
 إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم وكل خرق إلى العلياء سباق^(١)
 وفتية كنتجوم الغرب نيرهم يهدى وصايهمو يردى باحراق
 وكوكباً لى منهم كان مغربه قلبي ومشرقه ما بين أطواق
 الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حرمشتاق
 فان أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
 لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلَّق فيه غير أخلاقى !
 قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يشلم الحب آدابى وأعرافى
 إني لأرمقه والموت يضغطني فأقتضى فرجة ترتد أرمافى

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام
 هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معروضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
 ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الظريف فى سخاوة ، والفى الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا “ .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن نقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا	في ظلها والزمان عيـد
وكم سرور همي علينا	سحابه ثرة تجود
كل كأن لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عيـد
حصـله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلتا إن تنكبنا	رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنـت مولـى	قصر في شكره العيـد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السَّوق ، فيسر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعيـل .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجحوا لابن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 ” كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والناظر في إبانته ، والعجب منه أنه كان يدعو
 قريحته لما شاء نظمته ونثره في بديته ورويته ، فيفقد الكلام كما يريد من غير اقتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صنعيته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان في تميم الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه ^(١) .

وقال الثعالبي : ” فنثره في غاية الملاحاة ، وشعره في غاية الفصاحة ^(٢) ” .

وقال ابن بسام : ” وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحس معه
 الكبير إلى صباه ^(٣) ” .

وقال الحناط وهو يهاجمه : ” الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظما ، شاعرا بأنفه ،

ثانيا من عطفه ، مخيلا أنه أحرز السبق في الآداب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستصغر أساتيد الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن الليون اذا ما نُزِّيَ في قَرْنٍ ^(١) لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والتمالي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين في ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حينما من الزمان . ولو آتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والنشير ، والتفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن ثره بمعيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المنعري رأيه في شعر ابن هانيء الأندلسي فأجاب : ”رُحَى تطحن قرونا“ وهو جواب حذق وذكاء ، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك في ثر ابن شهيد ، فهو في الأكثر جمعة وقعة وقلقلة في غير نفع ولا غناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك ما زاه في ثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم ، ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا ثره على وجوهه ، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة ، فلم نزد إلا اقتناعا بأنه كان في إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في ثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارنة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه بريق يعشى العيون . وكان الثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية ، وأستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى النقائض في عالم الشعر ، فوقع له مع الافيللى والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الدخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قناعس بالكسر وهو العظيم

من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه انحدر بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فإن الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فإنه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاعة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلي فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليلي :

” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نعمته نعمة شاعر^(١) “ .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز، ومن ريش طار، ومن سارت به الأيام سار؛ جد كبا ، وحسام نبا، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كما قبل أن ترمى بنا النوى مراميا ، وتلقى علينا الخطوب مراسيا ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى صحبة ، وحلفنى صبوة ، قد تخلىنا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والمثقى كشب ، والزمان غير ، وحواصلنا صفر ، وترنم ترنم الحمام ، على زرق الحمام^(٢) ، ثم ألفت الأيام علينا بكل كل فنشرنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الحمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، واقتشرت لبدة^(١) العواء ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتب ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فيما لديك ، وهيات ! يأبى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويجاذب العظام ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالחסوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢)

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

” لما قدم زهير الصقلي فتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فمرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساحبا لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على — جالبا في المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرضُ الحفون ولثغة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

(٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١

(١) العواء : من منازل القمر .

مرض الحفون واثمة في المنطق شيطان جرا عشق من لم يعشق
من لى بأثغ لا يزال حديثه يذكر على الأباد جمره محرق
ياني فينبو في الكلام لسانه فكأنه من نحر عينيه سقى
لا ينش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديهة : وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأخفش، فلم أستحسن الإخفش، فقلت فيه معرضاً إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا في "التوابع والزوابع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته في صفة البرد والنار والخطب، ورسالته في الحلواء، وكلماته في وصف جارية، ونعت الماء والثلج والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل في جماتها تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق في نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفاضل من شعراء المجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له في تلك الرسائل "المستجادة" قوله في وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح"

وقوله في وصف البعوض :

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، إبرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليفته"^(٢).

ورسالته في وصف الحلواء قالها تحقيراً لفقيههم لقيه في المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «أضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار في ثيابه، وأسأل من لعابه، وأزور جانبه،

(١) ما سمعته ابن شهيد تعريضاً هو أيضاً لإخفش لم ترد روايته لأننا لا نستطيع رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والمذوق. وبقية هذا الحديث في ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١ (٢) القيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، قال فالودج
 ”مجانة الزناير خالطها لباب الحبة ، بخاءت أطيب من ريق الأحبة“ والخبيص ”جلید سماء
 الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة “ ، ثم يقول ابن
 شهيد بعد كلام : ”فأمرت الغلام بابتیاع أرطال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على
 ضروبها التي صرعت ، بخاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانة ، وألقى عليها
 بجرانه ، وجعل يركل برجائه ، ويحاش بفخذه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك
 حكمها ، فجعل يقطع ويبلغ ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا
 عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو
 يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بأحرها ، فهبت منه ريح عقيم ،
 قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بفر ، فالتحننا منه
 الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان ^(١) .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة
 في الرسالتين متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء
 بفلاح منهوم ، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ، ولننظر كيف يقول
 وقد استدرج سواديا بالكرخ ^(٢) :

”فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ،
 وطعامه أطيب ، فاستفزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ،
 ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا ^(٣) ، فقلت : أبرز لأبي زيد من
 هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وآخر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في الذخيرة ص ٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفي اليتيمة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي النسختين
 اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التي اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف
 النسختين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب الغربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع
 في التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيثا من ماء السماء^(١) ، ليا كله أبو زيد هنيئا ، فألقى الشواء بساطوره ، على زبدة تنوره ،
 بفعلها كالكمل سحقا ، وكالطين دقا ، ثم جاس وجلست ، ولا نبس ولا نبست ، حتى استوفيناها
 وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين ، فانه أجرى في الحلق ، وأسرى
 في العروق ، وليكن إيلي^(٢) العمر ، يومى^(٣) النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى^(٤) الدهن ،
 كوكبى^(٥) اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليا كله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت ،
 وجرى وجردت ، وأستوفيناها . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ،
 ليقمع هذه الصارة ، ويفتأ^(٦) هذه اللقم الحارة ! إجلس ، أبا زيد ، حتى آتيك بسقاء ، يحمينا
 بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يرانى ، أنظر ما يصنع به ، فلما أبطأت
 عليه قام السوادى الى حمارة ، فاعتلق الشواء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال :
 ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القجة عشرين ،
 وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! بفعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردائه ، ويحل عقده
 بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! “ .

وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشغوقا بأدبه
 ومعنيا بمعارضته ، فقد حدثنا في ” التوابع والزوابع “ أنه قابل بأرض الجح (زبدة الحقب)
 صاحب بديع الزمان ، وجرى بينهما مصاولة انتصرو فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن
 رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس ، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك ،
 وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدمه كذلك الى شعراء الجح
 فاستجادوه ، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب ، وفيها كذلك كلمات
 تُليح بمغامر الفتك والمجون ، وكانت جاريته ” أخت نعمة ، ورببة نعمة ، كأن شعرها على

(١) الساق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجرة يشبه الزمان . (٢) الصارة : العطش .

(٣) يفتأ : يسكن .

غرتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء... تكلمك بالحاظها، وتأسوك بالفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بترجسة، كأنما نغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب إن، ثمرة رمانتان، وتفتل عليك بكفل مانج، كأنه كشيح عاج... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو عاتك تداركت عليك، وإن أعطشتك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت نخرة أو رضاب، أو أجاعك عراكها ^(١) أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان“.

٨ — ورسائله عن النار والخطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد، ولكنهما، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهي رسالة مهداة الى صديق نفحه بأحمال من الخطب الجزل — والخطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلتُ يحني خطبا دل على نفسه، وتشظى من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بينات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيج، وله من حرها خجيج، ثم خز لها صريعا، وأستولت عليه صعبا متعبا، فبددت شمله وألفت شملها، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمي بالوان، وتهتد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خر لها على جبينه، ومات بها من حينه“ ^(٢).

٩ — وبعد فان نثر ابن شهيد — على ما فيه من مأخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشد الاختلاف. والنثر الفني كالشعر، له دقائق قلما يتفق في تذوقها الناقدون. وكان للرجل في حياته نجاح مرموق، فقد وصل ثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء، وفي هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذي طرب له كتاب الصنعة في المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحة من نثره الذي جرى فيه على سليقته وفطرته ، وأنحاز فيه إلى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، إذا مضى يشرح مزائق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان في عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فإن محمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولندكر أننا ننقد وننقض ، في سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحية وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميكالى

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد، وتنفياً ظلالهم أبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمداني، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والأزدواج فى رشاقة وعذوبة وآساق . وفيه يقول الثعالبي فى مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمه على فكره، من ملح تترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وآيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالآقتباس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقراءت نسخة الكرم والفضل من لحاظه، وآتهيت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لأبن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز آباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبل الفطر ! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من البحنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المراجع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوى لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها
الوشى الصناعى، فلم تشبه إلا بشيعة، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسما، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونعيا“ .

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب ، وكف الهوى رحب ، وشرب الصبأ عذب، وما لشرق
الأنس غرب^(١)“ .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وجف باكثر مما متع، وأوحش فوق
ما أنس، وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق،
ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلطف والأشتياق^(٢)“ .

وليأمل القارئ رقة الحنين في قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد على برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته،
فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذى رقت غلائله ،
وصفت من الألفداء مناهله ، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومربى

شدت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله بعز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق

الأشتياق أسيرا^(٣)“ .

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

”كأني، وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاج، أو كابدته الحلي لاثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويحرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم ييخل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدي على صروفه وأستنجد، وأتلفى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنائه بعثرة حال والزمان عثور
فدرك آمل وتقضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهم إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد التازح، وتسهيل الصعب الجالح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأنهم مالم يزل معهودا، ويحدث للذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملقى به والقادر عليه“ .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال ، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكآب والشعراء، فراه يقول :

”يا بى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبدده، ومغلب ظلم يحدده . ولو أنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراقى، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا واقى“ .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

”لو أستطعت خلعت عليه سلامتى سر بالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتها بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه“ .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ نية . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ نية .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد مجوم بخير صائب^(١)، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقتة الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، وبياضها جلدة بين عيني وأنفى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكبّاد وقلوبى ، وكانت بينى وبين النوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبسات المساء نضب عنها الغدير، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها ، حتى تفارق الحمام أطواقها “ .

٤ — وأهتم الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلبه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا، وأبرعها بلاغة وإعجازا، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة، ومعانيه در السحاب، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف، فائزة بقداح الحسن والظرف، مالكة لزمام القلب والطرف، ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الفرر والأوضاع، كما أطلق فيها السنة الثناء والامتداح “ .

٥ — ويجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق، وما ألطف ما يقول الثعالبي فيه :
”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته، ولازمت فى أكثر أوقاتي على مجلسه، وتعطرت بغير موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته أغتاب غائبا، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا، أو خيب آملا، أو أطاع سلطان

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعاطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه^(١).

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألأفه آتتهت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب، فأدبه مقسم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اقتضاء، أو مالكة تهنته، أو نبيعة شاء. والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقاً منهم كان يؤلف الكتب بإرشاده وفى ضوء فكره. وهذا شبهه بالحق: لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية، ولكن ينبغى الاحتياط فى فهم هذه الفكرة: فقد كان الميكالى غنياً، وكان يته ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه.

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله:

شافه كفى رشاً بقبله ما شفت
فقلت إذ قبلها ياليت كفى شفتى

وقوله:

من لى بشمل الأنس أجمعه بشادن حلّ فيه الأنس أجمعه^(١)
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لأن بعد الصد أخذه

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج.

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله:

عمر الفتى ذكركه لا طول مدته وموته خزيه لا يومسه الدانى

(١) الأخدع: شعبة من الوريد، والجمع أخداع

وقوله :

كم والد يحرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعدُ
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد
ذكى الجنان .

٨ — وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في ثمره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطن الأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف ، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى ثراء، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينقضي الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار يتنقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد أستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب النور ، ولكن الناس لم ينتبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفته ، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كتّاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبى في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطار، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء الفريضة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، ومن
لم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان
صاحب عجائب، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخوم حرفا ولا يخل معنى،
وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهتد بها
عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب
الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء،
وأملحه^(١)، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه
كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس
لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجهرات
الحدة، وثمرات المدة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح
عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا
كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همدان سنة ٣٨٠
وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
ما عنده، وأستفد علمه، وأستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن
آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكافهم، والاقبتباس

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم ، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما آستقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأزاح عله في سفرته ، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشر بها بزه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة^(١) نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها ، وضمنها ما تشهى الأنفس ، وتلد الأعين ، من لفظ أنيق قريب المأخذ ، بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول . ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره ، وقرب نجحه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويجتري على مجاراته ، فلما تصدى الهمداني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان ، وقرع النبع بالنبع ، وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمداني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأدزله أخلاف الرزق وأركبه أكاف العز . وأجاب الخوارزمي داعي ربه بخلا الجول للهمداني وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة ، ولم يبق في بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها ، وجنى ثمرتها ، وأستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا آستطع منه بنوء ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم ، وألقى عصاه بهرة وأتخذها دار قراره ، وجمع أسبابه ... وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي ... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره ، وتعرفت القرّة في عينه ، والقوة في ظهره ، وأقنى بمعونته ومشورته ضياعا فائحة ، وعاش عيشة راضية . وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب ، وأنثلم حد القلم ... الخ^(٢) .

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ - ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة القزوينية ”غزوت النغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين“ .

٤ — أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي استفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهو وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من آهت بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفاسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحشنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي الى العجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام في الثناء على من وجه اليه الحديث :

”نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا ووطننا نخراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فتعشقه ، ونقدر أنا لو ووطننا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وقد كان اتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق، لم يوجهه استحقاق، من بزة بزوها، وفضة فضوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطننا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دمه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع في صدره، وصديق استهان بقدره، وضيف استخف بأمره. لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشونته، ورددنا الأمر في ذلك إلى زى استغنه، ولباس أسرته، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، وتقيم منأده.

هـ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله في سفرته إلى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث، ولباس رث.

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي.

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحنة :

«الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلعة، في أطار الغربة، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب إلى الدرس، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة»

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربته صغرا ، وأحتملته وزرا ، وأحتضنته
نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وشباب الجمال، ولست مع هذه الحال،
وفي هذه الأسمال، أتقرز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت
إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يحرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .
وفيهـم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديـةٌ ينتابها القول والفعلُ

ولو طوحتُ بأبي بكر أيده الله طوائف الغربه ، لو جد مغنى البشر قريبا ، ومحط الرحل
رحيبا ، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبي بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب
الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ ان شاء الله تعالى “ .

فأجاب الخوارزمى :

”وصلت رقعة سيدى ومولائى ورئيسى أطلال الله بقاءه الى آخر السكاج ، وعرفت
ما تضمنته من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه
من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشكى ما فى نفسه!
أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما،
على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله
عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهدها التوراة والانجيل،
وناصراه التأويل والتزيل، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى
عنهم فكما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة، وكال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم
فأحدث المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ فإ عهدِ نجدٍ عندنا بذيـم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى
بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع على طريق عشرقى بالمعارضة،
وسوء المؤاخذه، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فبذا عتاب سيدي إذا أستوجبنا عتابا ، وأقترقنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العريضة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .“

٦ - وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وانقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي « ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاولت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ، ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

”... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفض ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأستزناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتماعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتلتن فورتك ، ولا ترقص لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتتلا المجلس فوائده ، وتذكر أبياتنا شوارد ، وأمثالا فرائده ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بمحدثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع .مك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب ننفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنين كيف استطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدي نوعا من القصص في تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التلويل .

فاسمع خيرا وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفُتت به أقرانك ، وملكك به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به آسماك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... بخارنا بفرسك ، وجُد لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبديهة إن نشطت .
فهذه أبوابك التى أنت فيها أبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأخم عن الحفظ رأسا ، ولم يحل فى النثر قِدحا . وقال :
أبادهك .

فقلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز . فقلت : يا هذا أنا أ كفيك ، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستنزف فيه يومه ، ودوّنه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وسأقرن كل بيت بوقفه ، وأنظم كل معنى الى لفقه ، بحيث أصيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطقى أن لا أقطع النفس ، فان تها لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أولى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أملتته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنجى لنا عن أرض المسائلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد لإنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتنطرد فيعرف الحال الى من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال الى السيد أبي الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذي قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكه	وبروكه عند القريض ببركه ^(٢)
متسرع في كل ما يعتاده	من نظمه متباطئ عن تركه
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه في فكه
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر الى بحر القريض وفلكه
فتى تواني في القريض مقصر	عرّضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدم بيته	في المكرمات ورفعته في سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم آنكه ^(٣)
وإذا نظمت قصمت ظهر مناظرى	وحطمت جارحة القرين بذكه
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغه وبدلكه
أصغو الى الشعر الذى نظّمته	كالدرّ رصع في مجرة سلكه
فتى عجزت عن القريض بديهية	فدمى الحرام له إراقة سفكه

وقال أبو بكر أبيتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويرزها من اللغاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فما لك

نقد (١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر الجرمين يومئذ زرقا) أى عيا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق أبنيك وتضييمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهزة أعقل منه لأنها تحدث فتغطي ، فلم يستجري أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه للبدية نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذلك . وأقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلي يارق وجوى يزيد وعبرة تفرق
وأبتدر أبو بكر أيده الله إلى الإجازة ولم يزل إلى الغايات سباقا فقال :
وإذا آبتدهت بدية يا سيدي فأراك عند بديهي تتقلق
وإذا قرضت الشعر في ميدانه لا شك أنك يا أخى تشفق
إني إذا قلت البدية قلتها عجلا وطبعك عند طبعي يرتق
مالي أراك ولست مثلي عندها مموها بالترهات تمخرق
إني أجزع على البدية مثل ما تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صخر أصم لهاله مني البدية وأغدى يتفلق
أو كنت ليثا في البدية خادرا لرئيت يا مسكين مني تفرق
وبدية قد قلتها متنفسا فعل الذي قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكني أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف بجبل قاف ، منها تتقلق وتشفق وتمخرق وتحرق وتطلق وتعلق وتسرق وتفرق وأحق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، نخذ الآن جزاء عن قرضك ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق فانرس فإن أخاك حتى يرزق
دعني أعمرك إذا سكت سلامة فالقول ينجد في ذويك ويعرق
ولفائك فتكات سوء فيكم فدع الستور وراءها لا تحرق
وأنظر لأشنع ما أقول وأدعى أله إلى أعراضكم منسلق
يا أحقفا وكفالك ذلك خزية جربت نار معرق هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفتح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحق لا يجوز فإن أحق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحق فلا يزال يصسفك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نغاطبت بيا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت لتتعلق وهما لا يركضان فى حلبة ولا يخطان فى خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا، ثم إني أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على أنفاسي ووافقني عليها فإن عجزت عن اختلافها حفظتها لك، فسلى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبي :

أهلا بدار سباك أغيدها أبعد ما بان عنك نحردها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخني البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برأ وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبد الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكلنا بصاعه ومُده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا، ويستقي من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللناظرة حضرا لا للنافرة، فان نفضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمك . ولو كان

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمضي على غُلُوّاته ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند ، ووضعت اليد على اليد ، وقلت استغفر الله من مقالتيك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ، أني أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأملك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفى للسفه أشدّ استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف أمتن عودة من نبك ، وستقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همدان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا الذي نتدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، وأجديت فأقنتيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحب اليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الورد لهذه الشرعة ، مرمل اليد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودى يماثلك في مذهبه ، ويزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرئني إلا بعين الرهبة ، ولا يمد اليّ إلا يد الرغبة ، ولو كان الغنى حظا لأخطاه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غنما لما أدرك بهذا السعى . ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مضرجا بدمائك ، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى صفت مشارعك ، وأخصبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك ، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أني أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت :
يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد !
فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكته، وأخجرتة النكته، وأنطفأت تلك الوقدة، وأنحلت تلك العقدة . وأطرق منيا
وقال : والله لأضربنك وإن ضربت، ولأشمتنك وإن شمتت، ولتعلن نبأه بعد حين، ولتعلن
أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تخطها من عمرك
وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك، متعذ في تهديدك،
لأنك كهمل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة
في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد، لكنا نصفحك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم
قصف، وغدا خسف، وقيل اليوم حمر، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة،
واتخذت السندس والإستبرق جنة، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج
في برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ما طاب وخبث، وأنشدت
قول أبي الرومي :

إن كان شيئا سفيها يفوق كل سفيه

فقد أصاب شيئا له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأزلى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت أمرا لا أشاكه

أحامقه حتى يقال سجيبة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودفع القوال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات، وجعل الناس يثنى الرؤوس، ويمنع
الجلوس، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وطئ من مضجع، ومهد من مهجع،
ولم يكن النوم ملء الحفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيل المؤذن بالفلاح،

ونذب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم مشواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندماً، ويبكى على ماجرى دمعا ودماً، فانه إذا سمع بحديث همدان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل، والألف آفة، والنون ندامة، وأنه إذا نام حاله منا طيف، وإذا آنتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما جرى ويتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد بفعل يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق، والمكتوب في الرق، إنه أخذ قصب السبق، وإنه ينطق عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين! وسعوا بيننا بالصلح يحكون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأوماً بإيماء مهيضة، وأهترأهتازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحباً، وبسطها في الجوّ بسطاً، وعلمنا أن للقمور أن يستخف ويستيهن، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد الكدر صفوا، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك في أخلاق في العشرة نستأنفها، وطرق في الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظاً كما ذكرت، والجمل أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سبحانه ذلك اليوم، فاعتلنا بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده، وأخذنا دندناً مزده، ونخرجنا والنية على الجليل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملائنا البلد شكراً، والأسماع نشراً، وبتنا نحن من الحال في أعذبا شرعة، ومن الثقة في أطيبها جرعة، ومن الظنون في أملحها فرعة، ومن المودة في أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالته، مؤديان لرسالته، ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، في أنك قهرت وأنى قُهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء فنناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت، وأجبتته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتجبح بقسرك . وإن لنفسك عندك
لشأنا إن ظننتنى أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس
أسأل الله سترًا يمتد ووجهها لا يسود ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت
على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوصل ،
أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التستار ، فإن كان قد ساءك
فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفًا فيه خير
لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا .
فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحي كلها فلم تنشأ الا بيت القائل :
وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغنم الذئبُ

فكم تتكوكب تلامذتك ويتعسكرون ، ويتجشأ أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين
ثنتين : إحداهما تروح الى أثني وتغدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك
بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفتر من القدر المتاح ، رزقنا الله
عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا
لم نحتسبها ، ووصلت موقفا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل
لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الفيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال :
قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسترى فى يومك ، وتُعرف فى قومك !
ثم مضت على ذلك أيام . ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ،
فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت
الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التبل تبذلا
والى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسماع مصغية وأستمع فتمنت الجوارح
لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن
يزرُق^(١) وكنت أول من حضر وآنظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر إذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه ، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجب بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بحذقه ، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فحشم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه ، وحديث كان شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سوى في موالة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت في البلاد ، ولم تسربزاد ، وطار في الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكني أتسوق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم ، وللاخرة قلتها لا للهاجرة ، وللدين أدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدني بعضها فقلت :

يا ملة ضارب الزما	ن على مُعرّسها خيامه
لله درك من نُحْرا	مى روضة عادت تغامه
لرزية قامت بها	للدين أشرط القيامه
لمضرج بدم النبوة	ة ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
مُنِع الورود وماؤه	منه على طَرْف الثمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الورى نصب العلامه
ومقبّل كان النبي	بلثمه يشفى غرامه
قرع ابن هند بالقضيب	عذابه فرط استضامه
وشدا بتغتمه عليه	ه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولى الكا	ب ققاء والدينأ أمامه
ليضرسن يد النداء	مة حين لا تغنى الندامه

وليدركن على الغرا مة سوء عاقبه الفرامه
وحى أياح بنو أمية مة من طوائلهم حرامه
حتى أشتفوا من يوم بد ر وأسبدوا بالزعامه
اعنوا أمير المؤمنين بن بمثل إعلان الإقامه
لم لا تخرى يا سما ء ولم تصبى يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا ل ولم تشولى يا نعامه
يا لعنة صارت على أعناقهم طوق الحمامه
إن العمامة لم تكن للثيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبها دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبق ع وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو ع وأرسلى بددا نظامه
جودى بمكنون الدمو ع أجد بما جاد آبن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما اعتقدت، انجلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شمية من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحبه للأؤوه ولودعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله.

”وما منهم إلا أغمر نجيب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن المسارجسي :
”وكل إذا عد الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقيد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قدحه المعلي، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسيلة المسيلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلحن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وانتظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقترحات كانوا يبتوها، فما ظنك بالخلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته، وبيت الى القافية سقته، على ريق لم أبلعه، ونفس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى نقترح القوافي ونعين المعاني وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروي الذي أسومه، وذكرت المعنى الذي أرومه، فأنت حي القلب كما عهدناك، مشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لاقى إلا أنت . فلما خرجت من عهدته هذا التكليف حتى ارتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم البیان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته وهب بجملته، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين في رأسه ترزان، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر ترحح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لناظرني والمناظرة آشتقت إما من النظر أو من النظر، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضل
ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . فقصت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل
من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل
حريصاً على اللقاء ، سريعا إلى الهجاء .

”ولو زبنتك الحرب لم تترمرم“ .

ففى أى علم تريد أن نتناظر؟ فأوما إلى النجو، فقلت : هذا إن اليوم قد متع ، والنهار قد
أرتفع ، والظهر قد أزف ، ولئن قرعنا باب النجو أضعنا اليوم فيه ، فما ذا يخرج الناس ، فعلا هتاف
الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى الخبيب . فإن شئت أن أناظرك فى النجو فسلم الآنلى
ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل .
ثم أنا أجاريك فى هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا ، وأرتفعت المضاجعة
وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب
نحراسان وشيخ هذه الديار وهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق
والحذق ، وثناؤك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، وأضطره الى منازلة أو نزول عنها
ومقازة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأشددت قول القائل :

ومستلثم كشفت بالريح ذيله أقمت بعضب ذى شقاشق ميله
بجعت به فى ملتقى الحى خيله تركت عناق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتا من
الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر
واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم
والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت :
الراجع فى شئيه ، كالراجع فى قيئه ، لكنا نقيمك عن ذلك السماح فهات أنشدنا نحسين بيتا من
قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك نحرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً، كما سلمه بادياً، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورمى سواد قرونه ببياضٍ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويخضد، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذي تقضى علينا راضٍ
فلقد لبست ضفية ملمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضبني إذا نظمت تنفسا إن الغضا في مثل ذاك تغاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع وأسمع لنشيد شعر طائعا وقراض
فلا غلبني بديهة بديهي ولأرميت سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذي أردت بالبارق الفضفاض فأناكر أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذي يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأتقلب القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا، فقلت : ما قلت ؟ فأناكر البيت جملة، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتُتبرأ منه وهو يلحق بك فقل لي : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحاربي والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهم وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعوني من البديهة على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعتبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بغناؤه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرائين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بحي أعز محجر وندي أغر	محجل في خلقه ووفائه
يعشو اليه المحتسوى والمجتدى	والمجتوى هو هارب بدمائه
ما البحر في ترخاره والغيث في	إمطاره والجو في أنوائه
بأجل منه مواهباً ورغائباً	لا زال هذا المجد حالف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً ونقدنا عليه فيها كذا نقداً ، ثم قالت لمن حضر من وزير ورئيس وفتية وأديب : أرايتم لو أن رجلاً حالف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقد على فيما نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت الكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفتني الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العيبين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا ربيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الأطيّار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المغنى ، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أريج متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أدبياً لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى الخصمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقوني على الظفر . فقالوا : كفالك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح على غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، وآخر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعائة صنف فى الترسل فإن سرت فيها برجلين ولم أطريحنا حين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتاباً يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك وأنظم شعراً فى المعنى الذى أقترح وأفرغ منهما فراغاً واحداً ، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تفاؤل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً ، أو تجيل قدحاً ، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطروره مخالفة كان جواباً . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهية ولا يحتم فيها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام تصب معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفاً مدوحاً أو يبعثك ربك مقاماً محموداً؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبلى لهاتك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً أوائل سطورهِ كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا قرئ معرجاً وسرد معوجاً كان شعراً هل كنت تقطع فى ذلك شعراً؟ بلى والله تصيب ولكن من بدتك، وتقطع ولكن من ذقتك ! أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا فسر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا كتبتك تكون قد حفظته، من دون أن لحظته، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل آست البائن أعلم؟ ! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة، فقلت : وهذا القول طرمذة ! فى الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، ويعارض إنشائى بإنشائك. وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعاتها والأسعار وغلاؤها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

” الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، ويخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصلّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك ما يرجح للناس فى الزرع والضرع، ويعود اليه أمر الضر والنفع“.

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع
أشجاع قد نبئت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافة وقالوا :
أقرأه ، فجعلت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملاء المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحيط أن
في اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما
نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانجبتنا كرمه ، بارقة وشمناهممه على آمالنا رقاب وعلقتنا أموالنا ،
وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بحميل يتداركا أن ونعماء تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذي كتبها وتلك
مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن
نشطت ومجمل اللغة إن احترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره منلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركا بحميل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقتنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانجبتنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ،
فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن نتضرع اليه في أن يحيط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملاء بها صدور المحاضر
إن شاء الله

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أمساه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطلبك بسواه ولا أسألك عما عداه ، فوقف حماره ، وحمدت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبجر بالقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سرده فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يقدونني بالأمهات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشي عليه وقت إليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أنى قتلت مناسي جلدًا وقهرا
ولكن رمت شيئاً لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وجبنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرعت في الحفان ، وأسرعت إلى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضمًا ، ولا ينال إلا شماً ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرى وبفيض عن نفس ملاي ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم غشي عليك ؟ فقال : لحى الطبع وحمى القرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمى الطبع وحمى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجحد والهمز تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاماً يصير في بطنه مغصاً ، وفي عينه رمصاً ، وفي جلده برصاً ، وفي حلقه غصصاً ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البراء، وعلى هامك الثرى، ولا أطمعك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا إلى وقالوا: ملكت فأصبح! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها، أو يذخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميمات، فقلت: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الحاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين البآآت فقد علمتني الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومنغضوب. وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجرت فقد كان اجتمع الناس وغلت الكروش، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه ثقبيلا، وبالأفواه تيجيلا، وانتظروا خروجه إلى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل يحنوده وخلع الظلام عليه فروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

١٦ - نثر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعر بك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدهبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولنتظر كيف يقول :

”فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاحقت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمى الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام ترى من أفعالها غريبا ، أو تسمعى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافتي سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره“^(١) .

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهي مضطربة متأججة ، فترى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوذب كما تتوذب السنة الحميم ، كقولهِ في خليفة أبي نصر الميكاني بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الخليفة ، أنه قال : فضبت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن آستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

أنت أراك محتاجا اليك ، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلك ! « ولينأمل القارئ
« ان استطعت أن تراني محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا اليك » فانه غاية في التهمك اللذاع^(١) .

وفي مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أني طعام ، فلا والله إن لحمي حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التي تمنع الأكالات ... ومن شتمني من خلف ، فجزاؤه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق في ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لحمي للتقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى في المضغ ، وينشب في الحلق ، ويقلق في البطن ، ولا
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى^(٢) » .

٣ - وكان بدیع الزمان شديد الحقد على أبي بكر الخوارزمي ، وكان لذلك مغرما بالنيل
منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمي ، فكتب أحد أصدقاء بدیع الزمان يهنئه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى في هذه التهنية لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبيله ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطل الله بقالك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي،
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى، فان وجدت فهي عواري، وأن
عن الزمان وإن مطلت فستفد، وإن لم تصب فكان قد، فكيف يشمت بالحننة من لا يأمنها
في نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت،
وما أقبح الشماتة، بمن أمن الإمامة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة.
والدهر غرثان طعمه الخيار، وظمان شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاء الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا، فقد باطناه
ودا جميلا، والحرة عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم يتقاد، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقاني سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل في أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبي عامر الضبي يعزيه في بعض أقاربه وفيها يقول :

” أحسن ما في الدهر عمومته بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الانسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا في نفسه، أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله تقدماً لأمله، أم لحيله، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خلق مقهوراً ورزق مقدوراً، فهو يحيا جبراً، ويهلك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً، فان كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً، فليعلم الموت عدلاً . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضى بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمينه، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدراً لا يملؤه فرحاً، ولبؤسها قلباً لا يطيره جزعاً، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للتعلة حداً، وللعارية رداً . ولقد نعى الى أبو قبصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت على آمالي قعوداً، وأمانى سوداً، وبكيت والسخرى بما يملك، وضحكك وشر الشدائد ما يضحكك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها واضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ “ .

ع — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحسب . فهو بهذا العوبة صغيرة في يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرمى بها في الفناء حين يشاء .

ولا يقف بدیع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضي فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكك الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحرفي رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيها من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم الميئس والشر المستطير .

٥ - لكن هذه السباحة النفسية ليست سمة غالبية في بدیع الزمان ، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كرخبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم وأفتناص ما يملكون بشقى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففي المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندري فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

الناس حُمُرٌ بِفُوزٍ وأبرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت منهم ما تشتهي ففروز

وفي المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للال :

أنا أبو قلمون^(١) في كل لون أكونُ

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بمحق إن الزمان زبون^(٢)

(١) أبو قلمون ثوب رومي من الأبريسم يظهر للعين في ألوان مختلفة بصناعته . (٢) الزبون : الناقه التي

تدفع بطنها رجلها عند الحلب .

لا تكذب بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسي في يد الزمان إذا سامه أثقل

أنا أمسى من التبدل ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحق فيه ملىح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقه على الأغنياء ، ورميه إلى أن كل غني لئيم ، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثام م لكل ذي كرم علامة

رغب الكرام إلى اللثام م وتلك أشرط القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه من الكُتّاب والرؤساء ، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخططة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجلاء . ومن دلائل حقه وبغيه أن واليا عزل وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده ، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحق « لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام أنقضت :

وعهد تفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كان لم يكن وخط كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثرغ فاض مأؤه فلا يرشف، ووريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وثمن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشقة لا تفتن ألقاظها! وقد بلغني الان ما أنت متعاطيه من تمويه يحوز بعد الفلق، في الغسق... وإفنانك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتبنا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ - ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهي اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعفة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»^(١) وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(٢). وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع، يعنى نفسه^(٣).

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سَوَّغْتُ نفسه: فان عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل ففقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانها الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون إليه في أمره حتى أمر^(٤) بأسبغ حياؤه.

٣ - والظاهر أن صلتَه بالصاحب والصابى كانت صلة ودا، ورسائله إلى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق^(٥). أما رسائله إلى الصابى فتفيض بالعطف والحنان.

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٣٨ (٤) ياقوت

ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وانظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جنائه ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبارزه التي ما يزال يؤثرني فيها بالرغائب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتناس ، واعتذار وأغتياب ، وأستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وأستعدت عليها لاستعدادته . وشايحت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهر أناخ على مولاي بصرفه ، وأخترله دون واجب حقه » .^(١)

٤ — وتماز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بجبات شعره ، فقد آتبدأ إحدى رسائله الى صاحب هذه الأبيات :

كتاب لو أن الليل يرمى بمثله	لألقت يدا في حجرتيه ذكاء
تهادى بأبكار المعاني وعونها	وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهم أوالف	ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها نعمى وألبست الربا	نمائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلين نوء	وما صوبه إلا حيا وجباء

^(٢) وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإينام ، لا زالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به .^(٣)

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية : « وقفت على الأبيات التي أتحنفني بها سيدي ، وتكلفت لجوابها على ظلم في خاطري لطول السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) الينمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وجباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل

الشعر بالنثر في سياق واحد . (٣) الينمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتي من أمثاله ، مادمتا في ملكة الهواجر، وتعيب البكر^(١)
والأصائل» .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية، كقوله في وصف رسالة للصابي :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة، وتترأى أشخاص البيان ،
وتمايل أعطاف الحسن والاحسان، وقرأت لفظا جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة
المضارعة، ولحمة الموافقة، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني، وتعلق العجز فيها بالهادي،
أولاد أرحام مبروزة، وذوات قربي موصولة، لتعاطف عيونها، وتناصف أبكاها وعونها»^(٢) .

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى صاحب في فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في امتباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاي
عن هذا النفل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء في الانسان الذ من كفه وبنانه ، وكان
في ذلك اليوم الذي شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان نار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكجا ببعض الغلمان دابته فأختلسوه وأقسموه بينهم وأكلوه
في الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عبثهم ومعرتهم ، فأنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتصمين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا في هذا الفتح ، وبلغت له مغانم الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفيهما فيل صغير بقية الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف - منه ، وفي الغنائم كل ما تشتهي

الأنفس وتلد الأعين . والله تعالى يحني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين“ .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب
عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فأنت وعضد الدولة — كلاً كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظره
فيما يقرب ويبعد ، بكما آتت مشاهد الملك بعد إقضاضه ، ورفع منار الدين بعد آنخفاضه ، فأبشرا
من الله تعالى بالحسنى ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين“^(١) .

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع الى بغداد والتقاءه معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالأذن لنا في تلقيه على الماء ، فأمتثلناه وتقبلناه
وتلقانا من عوائد كرمه ، ونفحات شيمه ، والمخائل الواعدة بجيلى آرائه ، وعواطف أنحائه ،
ورعاية ما كنفنا يمنه ، وشايعنا عزه ، الى أن وصلنا الى حضرته البهية ، فى الحديدية ، التى
استقبلت منه بسليل الملك ، وقعيد الخلافة ، وسيد الأنام ، والمستنزل بوجهه در الغمام ، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشره ، وغزتنا جهات تفضله وفضله ، وقرب علنا سنن خدمته ، وأنانا
شرف القعود بين يديه ، على كرسى امر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دسته ، وأوسعنا من جميل
لقياه ، وكريم نجواه ، ما يسى بالعز أغفال النعم ، ويضمن الشرف فى النفس والعقب ، ويكفل
من الفوز فى الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا فى الوصول اليه ، والقعود بين يديه ،
فى مواقع الحاظه ، وموارد ألفاظه ، مراتب لم يعطها أحد فى سلف ، ولم تجد الأيام بمثلها
لمن تقدم“ .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، والى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التى أعفاها الزمان من الضياع .

- ”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم“ .
- ”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايحه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يتسم اليه“ .
- ”وقد كان الفضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجائمه المكائد والكائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم أنتعاشا والجد خاذله، ويبغى أنتياشا والبغى طالبه“ .
- ”ولما ضاق عن هذا المخدول حلمنا بأقشاع غوايته، ووعر الطريق الى استبقائه، استخرنا الله تعالى في استرجاع ما ألبسناه من النعم“ .
- ”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة، والخطوة واللفظة“ .
- ”أدرع من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك“ .
- ”احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .
- ”التقوى هي العدة الوافية، والجنة الواقية، والتجارة الراجحة، والسعادة السائحة، والجلء للشبهة، والضياء للغممة“ .
- ”سيعيض الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب“ .
- ”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر، وأحبسوا الحاظكم عن محظور المناظر“ .